بسم الله الرحمن الرحيم

أهلَ الصُفَّة ..

وأباطيل بعض المتصوفة فيهم ، وفى الأولياء

وأصنافهم والدعاوى فيهم

مسألة : ما تقول السادة العلماء أئمة الدين رضى الله عنهم فى أهل الصَفَّة كم كانوا ؟ وهل كانوا بمكة أو بالمدينة ؟ وأين موضعهم الذى كانوا يقيمون به ؟ وهل كانوا مقيمين بأجمعهم لا يخرجون إلا خروج حاجة ، أو كان منهم مَن يقعد بالصُفَّة ومنهم مَن يتسبب فى القوت ؟ وما كان تسببهم ، هل يعملون بأبدانهم أم يشحذون بالزنبيل ؟

وما قول العلماء - وفقهم الله تعالى - فيمَن يعتقد أن أهل الصُفَّة قاتلوا المؤمنين مع المشركين ؟ وفيمَن يعتقد أن أهل الصُفَّة أفضل من أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ رضى الله عنهم ومن الستة الباقين من العشرة ، وأفضل من جميع الصحابة ؟ وهل كان فيهم أحد من العشرة ؟ وهل كان أحد فى ذلك العصر ينذر لأهل الصُفَّة ؟ وهل تواجدوا على دف أو شبابة أو كان لهم حاد ينشد لهم أشعاراً ويتحركون عليها بالتصدية ويتواجدون ؟

وما قول العلماء فى قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ (١) هل هى عامة أم مخصوصة بأهل الصُفَّة رضى الله عنهم ؟ وهل هذا الحديث الذى يرويه كثير من العوام ويقولون إن رسول الله ﷺ قال : « ما من جماعة يجتمعون إلا وفيهم ولى لله ، لا الناس تعرفه ولا الولى يعرف أنه ولى » ؟ وهل تخفى حالة الاولياء أو طرقهم

---

(١) الكهف : ٢٨

على أهل العلم أو غيرهم ؟ ولماذا سُمِّيَ الولى ولياً ؟ وما الفقراء الذين يسبقون الأغنياء إلى الجنة والفقراء الذين أوصى اللّه عليهم فى كلامه وذكرهم خاتم أنبيائه ورسله وسيد خلقه محمد ﷺ فى سُنَّته ؟ هل هم لا الذين لا يملكون كفايتهم أهل الفاقة والحاجة أم لا ؟ والحديث المروى فى الأبدال [1] هل هو صحيح أم مقطوع ؟ وهل الأبدال مخصوص بالشام أم حيث تكون شعائر الإسلام قائمة بالكتاب والسُّنَّة يكون بها الأبدال بالشام وغيره من الأقاليم ؟ وهل صحيح أن الولى يكون قاعداً فى جماعة ويغيب جسده ؟

---

(١) يزعم الصوفيون أن للأولياء حكومة باطنة يتوقف عليها نظام العالم ، ويطلقون على هذه الحكومة اسم « الديوان » .

والقُطب .. هو رأس هذه الحكومة الأعلى ، وإليه رئاسة الاجتماعات التى يعقدها فى انتظام مجلس شوراه الموقر .

ولا يعوق أعضاء هذا المجلس حواجز الزمان أو المكان .. وإنما يأتون من أرجاء الأرض فى لمحة طرف ، ويعبرون البحار ، والجبال والصحارى فى يُسر بالغ .

ودون ذلك القطب ، درجات مختلفة من الأولياء : الإمامان ، ثم الأوتاد الخمسة أو العُمُد ، ثم الأبرار السبعة ، ثم الإبدال الأربعون ، ثم النُجباء السبعون ، ثم النقباء الثلاثمائة ، ثم العصائب الخمسمائة ، ثم الحكماء أو المفردون وعددهم غير محدد ، والطبقة العاشرة فى الديوان هم الرجبيون ، وكل طبقة من هذه الطبقات العشر لها إقليم خاص ومجال عمل خاص ، فإذا خلا مكان فى طبقة ملىء بعضو من أعضاء الطبقة التى هى دونها مباشر .

- أما القُطب فهو أكمل إنسان متمكن فى مقام الفردية ، أو الواحد الذى هوموضع نظر اللّه فى الأرض فى كل زمان ، وعليه تدور أحوال الخلق .. وهو يسرى فى الكون وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح فى الجسد ، ويفيض روح الحياة على الكون الأعلى والأسفل ، وقد يسمى « الغوث » باعتبار التجاء الملهوف إليه .

والقطب عند الصوفية نوعان : قطب قديم أو معنوى ، وقطب حادث أو حسى .

فإن كان بالنسبة إلى ما فى عالم الشهادة من الخلق فهو القطب الحادث أو الحسى ، وهذا يستخلف بدلاً منه عند موته أقرب الأبدال منه ، إذ هو كان قبل القطبية بدلاً ، ثم استخلفه القطب الذى كان قبله عند موته .

وإن كان بالنسبة إلى ما فى عالم الغيب والشهادة من تعينات الوجود المطلق فهو القطب القديم أو المعنوى ، لا يستخلف عنه بدلاً ولا يقوم أحد من الخلائق مقامه ، أو هو قطب الأقطاب المتعاقبة فى عالم الشهادة ، فلا يسبقه قطب ولا يخلفه آخر ، أى ليس قبله قبل ، ولا بعده بعد .

والقطب القديم هو الروح المصطفوى أو الحقيقة المحمدية - أو هو اللّه سبحانه - حين عرف نفسه فى أول صورة تعيَّن فيها وسمَّاها الحقيقة المحمدية . =

وما قول السادة العلماء فى هذه الأسماء التى تَسمَّى بها أقوام من المنسوبين إلى الدين والفضيلة ويقولون : هذا غوث الأغواث ، وهذا قُطب الأقطاب ، وهذا قُطب العالَم ، وهذا القطب الكبير ، وهذا خاتم الأولياء ؟ (١) .

= ومن خصائص هذا القطب القديم وجود كل الأفلاك بوجوده ودورانها به وحوله ، وإحاطة علمه وقدرته بأقطارها ، وسمو رتبته وشرفه عن ذُرى رتبتها وسنام شرفها .

- والأوتاد هم الطبقة الثالثة فى حكومة الأولياء الباطنة .

ويطوف الأوتاد حول الأرض جميعاً فى كل ليلة ، فإن كان هناك مكان لم تقع عليه أعينهم ، بدت فيه فى اليوم التالى شائبة نقص ، فيخبرون القطب حتى يجعل همه إلى ذلك المكان المشوب ، فيبرأ مما أصابه بفضل ذلك القطب .

- والأبدال هم الطبقة الخامسة من طبقات الأولياء التى تنحدر من القطب الأعظم ، وهم الأولياء المكلَّفون بحفظ العالَم ، فإذا مات واحد منهم حَلَّ محله بدل أو بديل له ، وهم - فى عُرف الصوفية - أربعون لكل منهم درجة مخصوصة تنطبق أول درجاتهم على آخر درجات الصالحين ، وآخرها على أول درجات القطب ، كما مات واحد منهم بدل الله مكانه أحداً يدانيه ممن تحته ، وظهر البدل فى كل مَن هو أدنى درجة منه ، وحينئذ يدخل فى أول سلك الأبدال ، ولا يزال عدد الأبدال كاملاً حتى إذا جاء أمر الساعة قُبِضوا جميعاً . والأبدال لا يعرفهم عامة الناس (أهل الغيب) ، وهم يشاركون بما لهم من اقتدار له أثره فى حفظ نظام الكون .

(١) خاتم الأولياء ، يعنون به الولى الوارث الآخذ عن الأصل المشاهد للمراتب ، وأول مَن أطلق هذه التسمية هو محمد بن على بن الحسن بن بشر المعروف بالحكيم الترمذى ، إذ ألف فيها كتاباً سماه « ختم الأولياء » ، ويزعم فيه أن خاتم الأولياء يكون فى آخر الزمان ، وأنه أفضل ممن تقدَّمه من الأولياء ، بل ومن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

ويزعم الصوفية أن الولاية أفضل من النبوَّة ، لأن الولى يعلم الشريعة والحقيقة ، خبير بالظاهر والباطن ، فى حين أن النبى والرسول لا يعلمان سوى الشريعة أو الظاهر فحسب .

كما أن الرسالة والنبوَّة محددتان بالزمان والمكان ، ولذا تنقطعان ، وقد انقطعتا فعلاً ، أما الولاية فلا تحدها مكانية ولا زمانية ، بل هى صنو الديمومة والسرمدية والانطلاق .

والرسول - فى عُرف الصوفية - لا يستمد معرفته عن الله مباشرة ، بل بواسطة ملكَ يبلِّغه الوحى الإلهى ، فى حين أن الولى - على زعمهم - يستمد الحقيقة فيضاً مباشراً من باطن الحقيقة المحمدية ، أى ذات الله مع التعين الأول .

وأن الله تعالى تسمى باسم الولى ولم يتسم باسم الرسول أو النبى . =

وأيضاً .. فما قول العلماء فى هؤلاء القلندرية [1] الذين يحلقون ذقونهم ما هم ؟ ومن أى الطوائف يُحْسَبون ؟ وما قولكم فى اعتقادهم أن رسول الله ﷺ أطعم شيخهم قلندر عنباً وكلّمه بلسان العجم ؟ وهل يحل لمسلم يؤمن بالله تعالى أن يدور فى الأسواق والقُرى ويقول : مَن عنده نذر للشيخ فلان أو لقبره ؟ وهل يأثم مَن يساعد أم لا ؟ وما تقولون فيمن يقول : إن الست نفيسة هى باب الحوائج إلى الله تعالى وإنها خفيرة مصر ؟ وما تقولون فيمن يقول : إن بعض المشايخ إذا قام لسماع المُكَاء والتصدية [2] يحضره رجال الغيب وينشق السقف والحيطان وتنزل الملائكة ترقص معهم أو عليهم - وفيهم مَن يعتقد أن رسول الله ﷺ يحضر معهم ؟ وماذا يجب على مَن يعتقد هذا الاعتقاد ؟ وما صفة رجال الغيب ؟ وما قول مَن يقول إنه من خفراء التتار ؟ وهل يكون للتتار خفراء أم لا ؟ وإذا كانوا ، فهل يغلب حال هؤلاء خفراء الكفار كحال خفراء أمة النبى ﷺ .

وهل هذه المشاهد المسماة باسم أمير المؤمنين علىّ وولده الحسين رضى الله عنهما صحيحة أم مَكذوبة ؟ وأين ثبت قبر علىٌّ ابن عم رسول الله ؟

والمسؤول من إحسان علماء الأصول كشف هذه الاعتقادات والدعاوى والأحوال كشفاً شافياً بكتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ . والحالة هذه .. أفتونا مأجورين أثابكم الله .

= ويقولون إنه لما كان للنبيين خاتم ، فكذلك للأولياء خاتم ، وهو يستمد فيوضات علم الحقيقة مباشرة عن الروح المحمدى ، وهو أشبه ما يكون بالعقل الأول عند أفلوطين ، أو بالكلمة فى المسيحية المفلسفة .

ويقول محيى الدين بن عربى عن خصائص الولاية وخاتم الأولياء : « اعلم أن الولاية هى الفَلَك المحيط العام ، ولهذا لم تنقطع ، وأما النبوّة والتشريع والرسالة فمنقطعة ، والرسول من حيث هو ولى أتم من حيث هو نبى ورسول ، فرجع الرسول والنبى إلى الولاية والعلم » .

ويقول عن علم الحقيقة : « ما يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولى الخاتم ، حتى إن الرسل لا يرونه - متى رأوه - إلا من مشكاة خاتم الأولياء » .

وقد ادعى الترمذى بأنه خاتم الأولياء ، كما ادعى ذلك لنفسه ابن عربى .

وللمزيد ، انظر كتابنا : « الله توحيد وليس وحدة » نشر مكتبة وهبة - ١٩٨٦ ص ١٦٨ وما بعدها . (البلتاجى) .

(١) القلندرية : طريقة صوفية أسسها قلندر يوسف العربى الأسبانى ، جاء بها إلى دمياط الشيخ جمال الدين الساوى . (البلتاجى) (٢) أى الصفير والصفق بالأيدى . (البلتاجى)

أجاب رضى الله عنه وأرضاه .. آمين :

● الصُفَّة وأهلها والمهاجرون وأحكامهم :

الحمد لله رب العالمين .. أما الصُفَّة التى يُنسب إليها أهل الصُفَّة من أصحاب النبى ﷺ فكانت فى مؤخر مسجد النبى ﷺ فى شمال المسجد بالمدينة النبوية ، كان يأوى إليها من فقراء المسلمين مَن ليس له أهل ولا مكان يأوى إليه . وذلك أن الله سبحانه وتعالى لما أمر نبيه والمؤمنين أن يهاجروا إلى المدينة النبوية حين آمن به مَن آمن من أكابر أهل المدينة من الأوس والخزرج وبايعهم بيعه العقبة عند منى وصار للمؤمنين دار عز ومنعة ، جعل المؤمنون من أهل مكة وغيرهم يهاجرون إلى المدينة ، وكان المؤمنون السابقون صنفين : المهاجرين الذين هاجروا إليها من بلادهم ، والأنصار الذين هم أهل المدينة ، وكان مَن لم يهاجر من الأعراب وغيرهم من المسلمين لهم حكم آخر ، وآخرون كانوا ممنوعين من الهجرة لمنع أكابرهم لهم بالقيد والحبس ، وآخرون كانوا مقيمين بين ظهرانى الكفار المستظهرين عليهم ، وكل هذه الأصناف مذكورة فى القرآن وحكمهم باق الى يوم القيامة فى أشباههم ونظرائهم قال الله تعالى : ﴿ انَّ الَّذينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فى سَبيلِ اللّه وَالَّذينَ آوَواْ وَنَصَرُواْ أُولَئكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَالَّذينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّنْ وَلاَيَتِهِم مِّنْ شَىْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ ، وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ ، وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إِلا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فى الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ * وَالَّذينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فى سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذينَ آوَواْ وَنَصَرُواْ أُولَئكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً ، لَّهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [1] فهذا فى السابقين .

---

(١) الأنفال : ٧٢ - ٧٤

ثم ذكر من اتبعهم الى يوم القيامة فقال : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ، وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) ، وقال تعالى ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ ... الآية (٢) ، وذكر فى السورة الاعراب المؤمنين ، وذكر المنافقين من أهل المدينة وممن حولها . وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ، فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصِيراً * إِلا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً ﴾ (٣) .

فلما كان المؤمنون يهاجرون إلى المدينة النبوية كان فيهم مَن ينزل على الأنصار بأهله أو بغير أهله لأن المبايعة كانت على أن يؤووهم ويواسوهم . وكان فى بعض الأوقات إذا قدم المهاجر اقترع الأنصار على مَن ينزل منهم ، وكان النبى ﷺ قد حالفَ بين المهاجرين والأنصار وآخى بينهم ، ثم صار المهاجرون يكثرون بعد ذلك شيئاً بعد شىء فإن الاسلام صار ينتشر والناس يدخلون فيه والنبى ﷺ يغزو الكفار تارة بنفسه وتارة بسراياه ، فيسلم خلق تارة ظاهراً وباطناً ، وتارة ظاهراً فقط ، ويكثر المهاجرون إلى المدينة من الأغنياء والفقراء والآهلين والعُزّاب . فكان مَن لم يتيسر له مكان يأوى إليه يأوى إلى تلك الصُفّة التى فى المسجد . ولم يكن جميع أهل الصُفّة يجتمعون فى وقت واحد ، بل منهم مَن يتأهل أو ينتقل إلى مكان آخر يتيسر له ، ويجىء ناس بعد ناس ، وكانوا تارة يكثرون وتارة يقلون . فتارة يكونون عشرة أو أقل ، وتارة يكونون عشرين وثلاثين وأكثر ، وتارة يكونون ستين وسبعين .

---

(١) الأنفال : ٧٥ (٢) التوبة : ١٠٠ (٣) النساء : ٩٧ - ٩٩

• عدد أهل الصُفَّة وتاريخهم :

وأما جملة مَن آوى إلى الصُفَّة مع تفرقهم فقد قيل : كانوا نحو أربعمائة من الصحابة ، وقد قيل : كانوا أكثر من ذلك . جمع أسماءهم الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ولم يُعَرِّف كل واحد منهم فى كتاب تاريخ أهل الصُفَّة [١] وكان معتنياً بجمع أخبار النُسَّاك والصوفية والآثار التى يستندون إليها والكلمات المأثورة عنهم ، وجمع أخبار زُهَّاد السَلَف وأخبار جميع مَن بلغه أنه كان مَن أهل الصُفَّة وكم بلغوا ، والصوفية المستأخرون بعد القرون الثلاثة [١] . وجمع أيضاً فى الأبواب مثل حقائق التفسير ، ومثل أبواب التصوف الجارية على أبواب الفقة ، ومثل كلامهم فى التوحيد والمعرفة والمحبة ، ومسألة السماع ... وغير ذلك من الأحوال وغير ذلك من الأبواب . وفيما جمعه فوائد كثيرة ومنافع جليلة وهو فى نفسه رجل من أهل الخير والدين والصلاح والفضل . وما يرويه من الآثار فيه من الصحيح شىء كثير ويروى أحياناً آثاراً ضعيفة بل موضوعة يعلم أنها كذب

• أبو عبد الرحمن السلمى مُصَنِّف الصوفية :

وقد تكلم بعض حُفَّاظ الحديث فى سماعه ، وكان البيهقى إذا روى عنه يقول : حدثنا أبو عبد الرحمن من أصل سماعه ، وما يُظَن به وبأمثاله إن شاء الله تعالى تعمد الكذب [٢] لكن لعدم الحفظ والإتقان يدخل عليهم الخطأ فى

---

(١) هذا التاريخ لأبى عبد الرحمن محمد السلمى المذكور ، المتوفى سنة ٤١٢ هـ .

(٢) ذكر الحافظ فى « لسان الميزان » السلمى هذا ووصفه بأنه شيخ الصوفية وصاحب تاريخهم وطبقاتهم وتفسيرهم وأنه عَنِىَ بالحديث ورجاله وقال : تكلموا فيه وليس بعمدة بل قال ابن القطان : كان يضع الأحاديث للصوفية ، وأن الحاكم قال : كان كثير السماع والحديث متقناً فيه من بيت الحديث والزهد والتصوف . قال : وقال السراج : مثله إن شاء الله لا يتعمد الكذب ونسبه إلى الوهم .

الرواية ، فإن النُسّاك والعُبّاد منهم مَن هومتقن فى الحديث - مثل ثابت البنان والفضيل بن عياض وأمثالهم - ومنهم مَن قد يقع فى بعض حديثه غلط وضعف مثل مالك بن دينار وفرقد السنجى ونحوهما .

وكذلك ما يؤثره أبو عبد الرحمن عن بعض المتكلمين فى الطريق أو ينتصر له من الأقوال والأحوال فيه من الهدى والعلم شىء كثير . وفيه أحياناً من الخطأ أشياء ، وبعض ذلك يكون عن اجتهاد سائغ ، وبعضه باطل قطعاً مصدره مثل ما ذكر فى « حقائق التفسير » قطعة كبير عن جعفر الصادق وغيره من الآثار الموضوعة ، وذكر عن بعض طائفة أنواعاً من الإشارات التى بعضها أمثال حسنة واستدلالات مناسبة ، وبعضها من نوع الباطل واللغو .

والذى جمعه الشيخ أبو عبد الرحمن فى تاريخ أهل الصُفّة وأخبار زُهّاد السَلَف وطبقات الصوفية يُستفاد منه فوائد جليلة ، ويُجتنب ما فيه من الروايات، الباطلة ، ويُتوقف فيما فيه من الروايات الضعيفة . وهكذا كثير من أهل الروايات ومن أهل الآراء والأذواق من الفقهاء والزهّاد والمتكلمة وغيرهم ، يؤخذ فيما يأثرونه عمّن قبلهم وفيما يذكرونه معتقدين له شىء كثير وأمر عظيم من الهدى ودين الحق الذى بعث اللّه به رسوله . ويوجد أحياناً عندهم من جنس الآراء والأذواق الفاسدة أو المحتملة شىء كثير ، ومَن له من الأمة لسان صدق عام بحيث يُثنَى عليه ويُحمَد فى جماهير أجناس الأمة فهؤلاء هم أئمة الهدى ومصابيح الدُجى وغلطهم قليل بالنسبة إلى صوابهم وعامته من موارد الاجتهاد التى يُعذَرون بها وهم الذين يتبعون العلم والعدل فهم بُعداء عن الجهل والظلم وعن اتباع الظن وما تهوى الأنفس .

* * *

فصل

فى حال أهل الصُفَّة

وأما حال أهل الصُفَّة هم وغيرهم من فقراء المسلمين الذين لم يكونوا فى الصُفَّة أو كانوا يكونون بها بعض الأوقات - فكما وصفهم الله تعالى فى كتابه حيث بيَّن مستحقى الصدقة منهم ومستحقى الفىء فقال : ﴿ إِنْ تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِىَ ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِى الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ﴾ (١) ، وقالَ فى أهل الفىء : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٢) .

● الاكتساب ومتى يباح السؤال :

وكان فقراء المسلمين من أهل الصُفَّة وغيرهم يكتسبون عند إمكان الاكتساب الذى لا يصدهم عما هو أوجب أو أحب إلى الله من الكسب ، وأما إذا أُحصروا فى سبيل الله عن الكسب فكانوا يقدِّمون ما هو أقرب إلى الله ورسوله .

وكان أهل الصُفَّة ضيف الإسلام ، يبعث إليهم النبى ﷺ بما يكون عنده ، فإن الغالب كان عليهم الحاجة ، لا يقوم مايقدرون عليه من الكسب بما يحتاجون إليه من الرزق .

● تحريم السؤال (الشحاذة) :

وأما المسألة : فكانوا فيها كما أدَّبهم النبى ﷺ ، حرَّمها على المستغنى عنها وأباح منها أن يسأل الرجل حقة مثل أن يسأل ذا السلطان أن يعطيه حقه من مال الله ، أو يسأل - إذا كان لا بد سائلاً - الصالحين الموسرين إذا احتاج

---

(١) البقرة : ٢٧١ - ٢٧٣ (٢) الحشر : ٨

إلى ذلك ، ونهى خواص أصحابه عن المسألة مطلقاً حتى كان السوط يسقط من يد أحدهم فلا يقول لأحد : ناولنى إياه . وهذا الباب فيه أحاديث وتفصيل وكلام للعلماء لا يسعه هذا الكتاب مثل قوله ﷺ لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل له ولا مشرف فخذه ، وما لا فلا تتبعه نفسك » (١) . ومثل قوله : « مَن يستغن يُغنه الله ، ومَن يستعفف يعفه الله ، ومَن يتصبر يُصبِّره الله ، ما أُعطِىَ أحدٌ عطاءً خيراً أوسع من الصبر » (٢) . ومثل قوله : « مَن سأل الناس وله ما يُغنيه جاءت مسألته خدوشاً - أو خموشاً ، أو كدوشاً - فى وجهه » (٣) وقوله : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيحتطب ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » (٤) ... إلى غير ذلك من الأحاديث .

وأما الجائز منها فمثل : ما أخبر الله عَزَّ وجَلَّ عن موسى والخضر أنهما أتيا أهل قرية استطعما أهلها . ومثل قوله : « لا تحل المسألة إلا لذى ألم موجع ، أوغُرم مفظع ، أو فقر مدقع » . ومثل قوله لقبيصة بن مخارق الهلالى : « يا قبيصة ، لا تحل المسألة إلاّ لثلاثة : رجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فسأل حتى يجد سداداً من عيش - أو قواماً من عيش - ثم يمسك ، ورجل

---

(١) الحديث فى الصحيحين وغيرهما ، ولفظ البخارى فى كتاب الأحكام : عن عبد الله بن عمر قال : سمعت عمر يقول : كان رسول الله ﷺ يعطينى العطاء فأقول : أعطه مَن هو أفقر إليه منى ، حتى أعطانى مرة فقلت : أعطه مَن هو أفقر إليه منى ، فقال : « خذه فتموّله وتصدّق به ، فما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه ، ومالا فلا تتبعه نفسك » ، وله فى كتاب الزكاة : « إذا جاءك » بدل : فما جاءك ، ولفظ مسلم : « خذه فتموّله أو تصدّق به وما جاءك » ... إلخ ، وزاد فى آخره : قال سالم : « فمن أجل ذلك كان ابن عمر لا يسأل أحداً شيئاً ولا يرد شيئاً أعطيه » .

(٢) هو فى الصحيحين أيضاً على اختلاف فى ألفاظه وأوله : « ما يكون عندى من مال فلن أدخره عنكم ، ومَن يستعفف يعفه الله » ... إلخ .

(٣) رواه أحمد وأصحاب السنن وفيه زيادة تحدد الغنى بخمسين درهماً ، وفى سنده حكيم بن جبير ضعيف ، وتكلم فيه شعبة من أجل هذا الحديث ، ومعنى الخموش ، والخدوش ، والكدوش واحد .

(٤) روياه أيضاً واللفظ للبخارى .

يحمل حمالة فيسأل حتى يجد حمالته ثم يمسك ، وما سوى ذلك من المسألة فإنما هو سُحت يأكله صاحبه سُحتاً » [1] .

ولم يكن فى الصحابة لا أهل الصفَّة ولا غيرهم مَن يتخذ مسألة الناس والإلحاف فى المسألة بالكدية والمشاحذة - لا بالزنبيل ولا غيره - صناعة وحرفة بحيث لا يبتغى الرزق إلا بذلك . كما لم يكن فى الصحابة أيضاً أهل فضول من الأموال يزكون لا يؤدون الزكاة ولا ينفقون أموالهم فى سبيل الله ولا يعطون فى النوائب ، بل هذان الصنفان الظالمان المصران على الظلم الظاهر من مانعى الحقوق الواجبة والمعتدين حدود الله فى أخذ أموال الناس كانا معدومين فى الصحابة المثنى عليهم .

* * *

فصل

فى تبرئة الصحابة من قتال المؤمنين مع الكفار

مَن توهم أن أحداً من الصحابة أهل الصُفَّة أو غيرهم أو التابعين أو تابع التابعين قاتل مع الكفار ، أو قاتلوا مع النبى ﷺ أو أصحابه ، أو أنهم كانوا يستحلون ذلك ، أو أنه يجوز ذلك فهذا ضال غاوٍ بل كافر يجب أن يُستتاب من ذلك ، فإن تاب وإلاَّ قُتل ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ من بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ [2] .

---

(١) لفظ الحديث فى صحيح مسلم : « يا قبيصة ، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال : سداداً من عيش - ، ورجل أصابته فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال : سداداً من عيش - فما سواهن من المسألة يا قبيصة سُحت يأكلها صاحبها سُحتاً » .

(٢) النساء : ١١٥

بل كان أهل الصُفَّة ونحوهم كالقُرَّاء الذين قنت النبى ﷺ يدعو على قتلهم هم من أعظم الصحابة إيماناً وجهاداً مع رسول الله ﷺ ونصراً لله ورسوله كما أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِى الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ﴾ (٣) .

وقد غزا النبى ﷺ غزوات متعددة وكان القتال منها فى تسع مغاز مثل : بدر ، وأحد ، والخندق ، وخيبر ، وحنين ، وانكسر المسلمون يوم أحد وانهزموا ثم عادوا يوم حنين ونصرهم الله ببدر وهم أذلة ، وحُصِرُوا فى الخندق حتى دفع الله عنهم أولئك الأعداء ، وفى جميع المواطن كان يكون المؤمنون من أهل الصُفَّة وغيرهم مع النبى ﷺ لم يقاتلوا مع الكفار قط .

• أهل الصُفَّة وضلالات المتصوفة فيهم :

وإنما يظن هذا ويقوله من الضُلاَّل والمنافقين قسمان :

قسم منافقون ، وإن أظهروا الإسلام ، وكان فى بعضهم زهادة وعبادة يظنون أن إلى الله طريقاً غير الإيمان بالرسول ومتابعته ، وأن من أولياء الله مَن يستغنى عن متابعة الرسول كاستغناء الخضر عن اتباع موسى ، وفى هؤلاء مَن

---

(١) الحشر : ٨ (٢) الفتح : ٢٩ (٣) المائدة : ٥٤

يُفَضِّل شيخه أو عالمه أو ملكه على النبى ﷺ إما تفضيلاً مطلقاً أو فى بعض صفات الكمال ، وهؤلاء منافقون كفار يجب قتلهم بعد قيام الحُجَّة عليهم فإنَّ اللّه بعث محمداً ﷺ إلى جميع الثقلين إنسهم وجنهم ، زهّادهم وملوكهم ، وموسى عليه السلام إنما بُعِثَ إلى قومه لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ولا كان يجب على الخضر اتباعه ، بل قال له : إنى على علم من علم اللّه علمنيه اللّه لا تعلمه ، وأنت على علم من اللّه تعالى علمكه اللّه لا أعلمه . وقد قال النبى ﷺ : « وكان النبى يُبعث إلى قومه خاصة وبعثتُ إلى الناس عامة » ، وقال اللّه تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللّه إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَات وَالأَرْض ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ (٢) .

● كون توحيد الربوبية يجتمع مع الشرك وتعطيل الشرع :

والقسم الثانى : مَن يشاهد ربوبية اللّه تعالى لعباده التى عمّت جميع البرايا ويظن أن دين اللّه الموافقة للقَدَر سواء أكان ذلك فى عبادة الأوثان واتخاذ الشركاء والشفعاء من دونه ، وسواء أكان فيه الإيمان بكتبه ورسله والإعراض عنهم والكفر بهم . وهؤلاء يسوون بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين المفسدين فى الأرض وبين المتقين والفجار ، ويجعلون المسلمين كالمجرمين ، ويجعلون الإيمان والتقوى والعمل الصالح بمنزلة الكفر والفسوق والعصيان وأهل الجنة كأهل النار وأولياء اللّه كأعداء اللّه ، وربما جعلوا هذا من باب الرضا بالقضاء وربما جعلوه التوحيد والحقيقة ، بنوا على أنه توحيد الربوبية الذى يقر به المشركون وأنه الحقيقة الكونية . وهؤلاء يعبدون اللّه على حرف فإن أصابهم خير اطمأنوا به وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة . وغايتهم يتوسعون فى ذلك حتى يجعلوا قتال الكفر وقتال اللّه ، وحتى يجعلوا

---

(١) الأعراف : ١٥٨ (٢) سبأ : ٢٨

أعيان الكفار والفجار والأوثان من نفس الله وذاته ، ويقولون : ما فى الوجود غيره ولا سواه ، بمعنى أن المخلوق هو الخالق والمصنوع هو الصانع ، وقد يقولون : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ (١) ، ويقولون : ﴿ أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ (٢) ، إلى نحو ذلك من الأقوال والأفعال التى هى شر من مقالات اليهود والنصارى ، بل ومن مقالات المشركين والمجوس وسائر الكفار من جنس مقالة فرعون والدجال ونحوهما ممن ينكر الصانع الخالق البارىء رب العالمين أو يقولون : إنه هو ، أو إنه حَلَّ فيه .

وهؤلاء كفار بأصل الإسلام ، وهو شهادة أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله ، فإن التوحيد الواجب أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، فلا نجعل له نداً فى ألوهيته ولا شريكاً ولا شفيعاً . فأما توحيد الربوبية وهو الإقرار بأنه خلق كل شىء فهذا قد قاله المشركون الذين قال الله فيهم : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وهم مُّشْرِكُونَ ﴾ (٣) ، قال ابن عباس : تسألهم مَن خلق السموات والأرض ؟ فيقولون « الله » وهم يعبدون غيره . وقال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوات وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (٤) ، ﴿ قل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للَّه ، قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَّبُّ السَّمَوَات السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ * سَيَقُولُونَ للَّه ، قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ* قُلْ مَنْ بِيَدِه مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* سَيَقُولُونَ للَّه ، قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ (٥) .

فالكفار المشركون مقرون بأن الله خالق السموات والأرض ، وليس فى جميع الكفار مَن جعل لله شريكاً مساوياً له فى ذاته وصفاته وأفعاله ، هذا لم يقله أحد قط ، لا من المجوس الثنوية ، ولا من أهل التثليث ، ولا من الصابئة

---

(١) الأنعام : ١٤٨ (٢) يس : ٤٧ (٣) يوسف : ١٠٦

(٤) لقمان : ٢٥ (٥) المؤمنون : ٨٤ - ٨٩

المشركين الذين يعبدون الكواكب والملائكة ، ولا من عُبَّاد الأنبياء والصالحين ، ولا من عُبَّاد التماثيل والقبور وغيرهم ، فإن جميع هؤلاء وإن كانوا كفاراً مشركين متنوعين فى الشرك فهم يقرون بالرب الحق الذى ليس له مثل فى ذاته وصفاته وجميع أفعاله ، ولكنهم مع هذا مشركون به فى ألوهيته بأن يعبدوا معه آلهة أخرى يتخذونها شركاء أو شفعاء - أو فى ربوبيته بأن يجعلوا غيره رب الكائنات دونه مع اعترافهم بأنه رب ذلك الرب وخالق ذلك الخالق .

● التوحيد الذى جاء به الرسل :

وقد أرسل الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب بالتوحيد الذى هو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ ؟ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُواْ صَالِحاً ، إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾(٤) .

وقد قالت الرسل كلهم مثل نوح وهود وصالح وغيرهم : ﴿ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ (٥) فكل الرسل دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإلى طاعتهم ، والإيمان بالرسل هو الأصل الثانى من أصلى الإسلام ، فمَن لم يؤمن بأن هذا (٦) رسول الله إلى جميع العالمين ، وأنه يجب على جميع الخلق متابعته ، وأن الحلال ما أحله والحرام ما حرَّمه ، والدين ما شرعه - فهو كافر مثل هؤلاء

---

(١) الأنبياء : ٢٥ (٢) الزخرف : ٤٥ (٣) النحل : ٣٦

(٤) المؤمنون : ٥١ - ٥٢ (٥) نوح : ٣

(٦) المناسب أن يقال : بأن محمداً ﷺ .

المنافقين ، ونحوهم من يُجَوِّز الخروج عن دينه وشريعته وطاعته إما عموماً وإما خصوصاً ، ويُجَوِّز إعانة الكفّار والفجّار على إفساد دينه وشِرعته .

ويحتجون بما يفترونه أن أهل الصُفّة قاتلوه ، وأنهم قالوا : نحن مع اللّه ، مَن كان مع اللّه كنا معه . يريدون بذلك الحقيقة الكونية دون الأمر والحقيقة الدينية ، ويحتج بمثل هذا مَن ينصر الكفّار والفجّار ويخفرهم بهمته وقلبه وتوجهه من ذوى الفقر . ويعتقدون مع هذا أنهم من أولياء اللّه وأن الخروج عن الشريعة المحمدية سائغ لهم ، وكل هذا ضلال وباطل وإن كان لأصحابه زهد وعبادة فهم فى العبادَ ، مثل أوليائهم فى الأجناد ، فإن المرء على دين خليله ، والمرء مع من أحَبَّ ... هكذا قال النبى ﷺ .

● كثرة العبادة تجتمع مع الكفر ومع البدعة :

وقد جعل اللّه المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، والكافرين بعضهم أولياء بعض ، وقد أمر النبى ﷺ بقتال المارقين من الإسلام مع عبادتهم العظيمة الذين قال فيهم : « يُحَقِّر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإنَّ فى قتلهم أجر عند اللّه لمن قتلهم يوم القيامة ، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد » .. وهؤلاء قاتلهم أمير المؤمنين علىّ ابن أبى طالب لما خرجوا عن شريعة رسول اللّه ﷺ وسُنَّته وفارقوا جماعة المسلمين ، فكيف بمن يعتقد أن المؤمنين كانوا يقاتلون النبى ﷺ .

ومثل هذا ما يرويه بعض هؤلاء المفترين أنَّ أهل الصُفّة سمعوا ما خاطب اللّه به رسوله ليلة المعراج ، وأنَّ اللّه أمره أن لا يُعْلِمْ به أحداً ، فلما أصبح وجدهم يتحدثون به فأنكر ذلك فقال اللّه له : أنا أمرتك أن لا تُعْلِمْ به أحداً لكن أنا اللّه أعلمتهم - إلى أمثال هذه الأكاذيب التى هى من أعظم الكفر وهى كذب واضح ، فإن أهل الصُفّة لم يكونوا إلا بالمدينة ولم يكن بمكة أهل صُفّة ، والمعراج

إنما كان من مكة كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ (١) .

ومما يشبه هذا من بعض الوجوه رواية بعضهم عن عمر رضى الله عنه أنه قال : كان النبى ﷺ يتحدث هو وأبو بكر وكنت كالزنجى بينهما . وهذا من الإفك المختلق ، ثم إنهم مع هذا يجعلون عمر الذى سمع كلام النبى ﷺ وصديقه - وهو أفضل الخلق بعد الصدِّيق - لم يفهم ذلك الكلام بل كان كالزنجى ، ويدَّعون أنهم هم سمعوه وعرفوه ، ثم كل منهم يفسره بما يدَّعيه من الضلالات الكُفرية التى يزعم أنها علم الأسرار والحقائق ، إما الاتحاد وإما تعطيل الشرائع .

● كفر الباطنية :

ونحو ذلك مثلاً ما يدَّعى النصيرية والإسماعيلية والقرامطية والباطنية الثنوية والحاكمية وغيرهم (٢) - من الضلالات المخالفة لدين الإسلام ما ينسبونه إلى

---

(١) الإسراء : ١

(٢) النصيرية - أو العلويون - طائفة تقطن جبل العلويين وشمال سورية (حمص وحماة وحلب) . نسبة إلى محمد بن نصير مؤسس الطائفة أو راعيها (ت ٢٦٠ هـ) وكان الحسين الخصيبى يعتبر أكبر متكلميها .

ويعتقد النصيرية فى ظهور الروحانى بالجسد الجسمانى ، وأن الله تعالى قد ظهر فى صورة علىّ وأولاده ، وأنه كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض . لذا يطلقون اسم الإلهية على أئمتهم وأثبتوا هذا الاختصاص لعلىّ وأولاده . ومنهم من يُثبت له شركة فى الرسالة .

والإسماعيلية : هم القائلين بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق بعد أبيه ، ولم يختلفوا عن بقية المذاهب الشيعية إلا بهذا القول حتى خلافة المستنصر الفاطمى ، فلما تولى الخلافة بعده ابنه المستعلى انشق عن خلافته فريق من الإسماعيليين بزعامة الحسن بن الصباح ، وبايعوا لأخيه نزار . وبعد أن فشلت ثورتهم فى الإسكندرية ، انتقل الحسن بن الصباح إلى قلعة ألموت ، وعند ما أعلن الحسن بن محمد زعيم النزاريين (٥٥٨ هـ) إلغاء الشعائر الدينية والامتناع عن إقامة الفرائض ، أصبح النزاريون - أو الحشاشون - مغايرين لأصحاب المذهب الإسماعيلى الفاطمى ، فى حين ظلوا يحملون اسم الإسماعيلية حتى اليوم ، وهم أتباع أغاخان . أما الآخرون فهم المعروفون اليوم باسم البهرة أو السبعية .
=

علىّ بن أبى طالب أو جعفر الصادق أو غيرهما من أهل البيت كالبطاقة والهفت والجدول والجفر وملحمة بن عقب ، وغير ذلك من الأكاذيب المفتراة باتفاق جميع أهل المعرفة وكل هذا باطل ، فإنه لما كان لآل رسول الله ﷺ به اتصال النَسب

= ويعتقد الإسماعيليون أن الله تعالى فوق متناول العقل ، وأن الفعل الكلى يتجسد فى الأنبياء ، كما أن النفس الكلية تتجسد فى الأئمة ، ويُعرف النبى بالناطق ، والإمام أبو النقيب بالصامت ، وهم يعتقدون أن الإمام معصوم ولا عبرة بما يأتيه من أعمال ظاهرة .

- القرامطة : حركة دينية سياسية اجتماعية ، لا تزال حقيقتها على كثير من الغموض لانقراض أتباعها . وتُنسب إلى داعيها الأول « حمدان قرمط » فى العراق ، وأظهرها قوية فى البحرين أبو سعيد الجنانى (٢٨٥ هـ) ، ثم سيطرت على كثير من البلاد الإسلامية . وفى عام ٣١٨ هـ استولوا على مكة ونقلوا منها الحجر الأسود ثم ردوه بعد اثنتين وعشرين سنة ، وفى عام ٣٦٠ هـ انتزعوا دمشق من الفاطميين وزحفوا إليهم فى مصر فهزمهم المعز لدين الله الفاطمى عام ٣٦٢ هـ . وانتهى أمر القرامطة على أيدى الأمراء العيونيين فى البحرين عام ٤١٨ هـ .

وتطرف القرامطة فزعموا أن محمد بن إسماعيل رسول ، كما زعموا أن الرسالة انقطعت عن النبى ﷺ فى حياته ، وأن النبوة والرسالة قد آلت إلى علىّ بن أى طالب وأصبح النبى مأموماً له ، وأباحوا المحارم وجميع ما خلق الله فى الدنيا .

- الباطنية : فرقة دينية فلسفية ، اشتقت اسمها من الباطن .. ويعتبر الباطنية من غلاة الشيعة - أو هى والإسماعيلية شىء واحد - كما تطلق هذه التسمية على كثير من الفرق الأخرى التى نشأت بين الجماعات الإسلامية كالقرامطة ، كما يطلق بعض المؤرخين هذه التسمية على فرق نشأت فى بلاد فارس كالمزركية .

لزمت الباطنية هذه التسمية لحكمهم أن لكل ظاهر باطناً ، ولكل تنزيل تأويلاً ، وقد خلطوا بين الفلسفة والتصوف .

ويذكر بعض المؤرخين أن أقدم دعاة الباطنية هو « ميمون بن ديصان » الذى ظهر بالكوفة عام ١٧٦ هـ فجعل لكل آية من آيات القرآن تفسيرا ، ولكل حديث نبوى تأويلاً ، وذهب إلى أن الفرائض والسنن رموز وإشارات ، ومثلات ، وأمر بالاعتصام بالغائب المفقود والإعراض عن الحاضر الموجود ، ولهم مصنَّفات تضمنت مذهبهم ، فهم يفرِّقون بين العقل والنفس والعالم الدنيوى والعالم العلوى ، وبين الناطق - وهو النبى - والإمام الذى يجىء بعده فى المرتبة .

- الحاكية : طائفة اعتقدت بعصمة علىّ بن أبى طالب ، ورمت الصحابة بالكفر ، وكانت لا تقيم الصلاة ولا تصوم ، وتأكل لحم الخزير وتستحل المحرمات .. (البلتاجى) .

والقرابة ، وللأولياء والصالحين منهم ومن غيرهم به اتصال الموالاة والمتابعة ، صار كثير ممن يخالف دينه وشريعته وسُنَّته يموِّه باطله ويُزخرفه بما يفتريه على أهل بيته وأهل موالاته ومتابعته ، وصار كثير من الناس يغلو إما فى قوم من هؤلاء أو من هؤلاء حتى يتخذهم آلهة أو يقدِّم ما يضاف إليهم على شريعة النبى ﷺ وسُنَّته ، وحتى يخالف كتاب اللّه وسُنَّة رسوله وما اتفق عليه السَلَف الطيب من أهل بيته ومن أهل الموالاة له والمتابعة ، وهذا كثير فى أهل الضلال .

* * *

فصل

فى خطأ تفضيل أهل الصُفَّة على العشرة

وأما تفضيل أهل الصُفَّة على العشرة وغيرهم فخطأ وضلال ، بل خير هذه الأمة بعد نبيها : أبو بكر ثم عمر - كما تواتر ذلك عن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب موقوفاً ومرفوعاً - وكما دلَّ على ذلك الكتاب والسُنَّة واتفق عليه سَلَف الأمة وأئمة العلم والسُنَّة ، وبعدهما عثمان وعلىٌ وكذلك سائر أهل الشورى مثل طلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف وهؤلاء مع أبى عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة ومع سعيد بن زيد هم العشرة المشهود لهم بالجنة ، وقد قال اللّه تعالى فى كتابه : ﴿ لا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَّنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُواْ مِن بَعْدُ وَقَاتَلُواْ ، وكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الحُسْنَى ﴾ (١) ففضَّل السابقين قبل فتح الحديبية إلى الجهاد بأنفسهم وأموالهم على التابعين بعدهم ، وقال اللّه تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِىَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ (٣) .

---

(١) الحديد : ١٠ (٢) الفتح : ١٨ (٣) التوبة : ١٠٠

وقد ثبت فى فضل البدريين ما تميَّزوا به على غيرهم ، وهؤلاء الذين فضَّلهم اللّه ورسوله ، فمنهم مَن هو من أهل الصُفَّة . والعشرة لم يكن فيهم مَن هو من أهل الصُفَّة إلا سعد بن أبى وقاص فقد قيل إنه أقام بالصُفَّة مرة ، وأما أكابر المهاجرين والأنصار مثل الخلفاء الأربعة ومثل سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير وعباد بن بشر وأبى أيوب الأنصارى ومعاذ بن جبل وأُبَىّ بن كعب ونحوهم لم يكونوا من أهل الصُفَّة ، بل عامة أهل الصُفَّة إنما كانوا من فقراء المهاجرين ، والأنصار كانوا فى ديارهم ولم يكن أحد ينذر لأهل الصُفَّة ولا لغيرهم .

* * *

فصل

فى سماع المتصوفة والروايات المكذوبة له

وأما سماع المُكاء والتصدية وهو الاجتماع لسماع القصائد الربانية سواء أكان بكف أو بقضيب أو بدف أو كان مع ذلك شبابة ، فهذا لم يفعله أحد من الصحابة لا من أهل الصُفَّة ولا من غيرهم ولا من التابعين ، بل القرون الثلاثة المفضَّلة التى قال فيها النبى ﷺ : « خير القرون : القرن الذى بعثتُ فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » لم يكن فيهم أحد يجتمع على هذا السماع لا فى الحجاز ولا فى الشام ولا فى اليمن ولا فى العراق ولا مصر ولا خراسان ولا المغرب .

وإنما كان السماع الذين يجتمعون عليه سماع القرآن وهو الذى كان الصحابة من أهل الصُفَّة وغيرهم يجتمعون عليه ، فكان أصحاب محمد إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم يقرأ والباقى يستمعون ، وقد رُوِىَ أن النبى ﷺ خرج على أهل الصُفَّة وفيهم قارىء يقرأ فجلس معهم ، وكان عمر بن الخطاب يقول لأبى موسى : يا أبا موسى ، ذكِّرنا ربنا ، فيقرأ وهم يستمعون ، وكل مَن نقل أنهم كان لهم حاد ينشد القصائد الربانية بصلاح القلوب ، أو أنهم لما أنشد بعض القصائد تواجدوا على ذلك ، أو أنهم مزَّقوا ثيابهم أو أن قائداً أنشدهم :

قد لسعت حية الهوى كبدى فلا طبيب لها ولا راقى

إلا الطبيب الذى شغفتُ به فعنده رقيتى وترياقـــى

أو أن النبى ﷺ لما قال : « إنَّ الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يـــوم » أنشدوا شعراً وتواجدوا عليه ، فكل هذا وأمثاله كذب مفترى وكذب مختلق باتفاق أهل الآفاق من أهل العلم وأهل الإيمان ، لا ينازع فى ذلك إلا جاهل ضال وإن كان قد ذُكِرَ فى بعض الكتب شىء من ذلك فكله كذب باتفاق أهل العلم والإيمان .

* * *

فصل

فى الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى

وأما قوله : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ (١) فهى عامة فيمن تناوله هذا الوصف مثل الذين يصلون الفجر والعصر فى جماعة فإنهم يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، سواء أكانوا من أهل الصُفَّة أو غيرهم . أمر الله نبيه بالصبر مع عباد الله الصالحين الذين يريدون وجهه وأن لا تعدو عيناه عنهم : ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٢) ، وهذه الآية فى الكهف وهى سورة مكية ، وكذلك الآية التى هى فى سورة الأنعام : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، مَا عَلَيْكَ مِن حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣) .

وقد رُوِىَ أن هاتين الآيتين نزلتا فى المؤمنين المستضعفَين لما طلب المستكبرون أن يبعدهم النبى ﷺ ، فنهاه الله تعالى عن طرد مَن يريد وجهه وإن كان مستضعفاً ، ثم أمره بالصبر معهم ، وكان ذلك قبل الهجرة إلى المدينة وقبل

---

(١) الكهف : ٢٨ (٢) الكهف : ٢٨ (٣) الأنعام : ٥٢

وجود الصُفَّة ، لكن هى متناولة لكل مَن كان بهذا الوصف من أهل الصُفَّة وغيرهم .

والمقصود بذلك أن يكون مع المؤمنين المتقين الذين هم أولياء اللّه وإن كانوا فقراء ضعفاء فلا يتقدم أحد عند اللّه تعالى بسلطانه وماله ، ولا بذُله وفقره ، وإنما يتقدم عنده بالإيمان والعمل الصالح ، فنهى اللّه سبحانه وتعالى أن يُطاع[1] أهل الرئاسة والمال الذين يريدون إبعاد مَن كان ضعيفاً أو فقيراً ، وأمره أن لا يطرد مَن كان منهم يريد وجهه وأن يصبر نفسه معهم فى الجماعة التى أُمرَ فيها بالاجتماع بهم كصلاة الفجر والعصر ، ولا يطيع أمر الغافلين عن ذكر اللّه المتبعين لأهوائهم .

* * *

فصل
فى أكاذيب المتصوفة عن الأولياء

وأما الحديث المروى : « ما من جماعة يجتمعون إلاّ وفيهم ولى للّه »[2] فمن الأكاذيب ليس فى دواوين الإسلام ، وكيف والجماعة قد تكون كفاراً وفُسّاقاً يموتون على ذلك .

* * *

فصل
فى معنى الولى والولاية للّه

وأولياء اللّه تعالى هم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما ذكر اللّه ذلك فى كتابه ، وهم قسمان : المقتصدون أصحاب اليمين ، والمقرّبون السابقون ، فولى اللّه ضد

---

(١) لعل الأصل : فنهى اللّه سبحانه وتعالى نبيه أن يطيع ... إلخ ، بدليل ما عطف عليه من قوله : وأمره ... إلخ .

(٢) زاد بعضهم فيه : لا هم يدرون به ولا هو يدرى بنفسه . قال على القارى فى موضوعاته : وهو كلام باطل .

عدو الله . قال الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (١) ، وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ... إلى قوله : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ (٥) .

وقد روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى : « مَن عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ، وما ترددتُ عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه ، وما تقرَّب إلىَّ عبدى بمثل أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرَّب إلىَّ بالنوافل حتى أُحبه ، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يسعى » .

● تفسير الولى والولاية لله :

والولى : من الوَلْى ، وهو القُرب ، كما أن العدو من العَدو ، وهو البُعد ، فولى الله مَن والاه بالموافقة له فى محبوباته ومرضياته وتقرَّب إليه بما أمر به من طاعاته ، وقد ذكر النبى ﷺ فى هذا الحديث الصحيح الصنفين : المقتصدون أصحاب اليمين وهم المتقربون إلى الله تعالى بالواجبات ، والسابقون المقرَّبون وهم المتقربون بالنوافل بعد الواجبات . وذكرهم الله فى سورة فاطر والواقعة والإنسان والمطففين ، وأخبر أن الشراب الذى يُروَى به المقربون بشربهم إياه يُمزج لأصحاب اليمين . والولى المطلق هو مَن مات على ذلك ، فأما إن قام به الإيمان

---

(١) يونس : ٦٢ - ٦٣ (٢) المائدة : ٥٥ - ٥٦ (٣) الممتحنة : ١

(٤) فصلت : ١٩ (٥) الكهف : ٥٠

والتقوى وكان فى علم الله تعالى أنه يرتد عن ذلك فهل يكون في حال إيمانه وتقواه ولياً لله ؟ أو يقال : لم يكن ولياً لله قط لعلم الله بعاقبة هدايته ؟ قولان للعلماء .

وكذلك عندهم : الإيمان الذى يعقبه الكفر ، هل هو إيمان صحيح ثم يبطل بمنزلة مايحبط من الأعمال بعد كماله ؟ أو هو إيمان باطل بمنزلة مَن أفطر قبل غروب الشمس فى صيامه ، ومَن أحدث قبل السلام فى صلاته أيضاً ؟ فيه قولان للفقهاء المتكلمين والصوفية ، والنزاع فى ذلك بين أهل السُنّة والحديث من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم .

وكذلك يوجد النزاع فيه بين أصحاب مالك والشافعى وغيرهم . لكن أكثر أصحاب أبى حنيفة لا يشترطون سلامة العاقبة ، وكثير من أصحاب مالك والشافعى شرط سلامة العاقبة ، وهو قول كثير من متكلمى أهل الحديث كالأشعرى ومن متكلمى الشيعة ، ويبنون على هذا النزاع : هل ولى الله يصير عدو الله ؟ وبالعكس ؟ ومَن أحبه الله ورَضِىَ عنه ، هل أبغضه الله وسخط عليه فى وقت ما ؟ وبالعكس ؟ ومَن أبغضه الله وسخط عليه ، هل أحبه الله ورَضِىَ عنه فى وقت ما ؟ على القولين .

والتحقيق - وهو الجمع بين القولين - فإن علم الله القديم الأزلى وما يتبعه من محبته ورضاه وبغضه وسخطه وولايته وعداوته لا يتغير ، فمَن عَلِمَ الله منه أنه يوافى حين موته بالإيمان والتقوى فقد تعلقت به محبة الله وولايته ورضاه عنه أزلاً وأبداً .

وكذلك مَن علم الله منه أنه يوافى حين موته بالكفر فقد تعلّق به بغض الله وعداواته وسخطه أزلاً وأبداً ، لكن مع ذلك فإن الله يبغض ما قام بالأول من كفر وفسوق قبل موته ، وقد يقال : إنه يبغضه ويمقته على ذلك كما ينهاه عن ذلك ، وهو سبحانه وتعالى يأمر بما فعله الثانى من الإيمان والتقوى ويحب ما يأمر به ويرضاه . وقد يقال : إنه يوليه حينئذ على ذلك .

● شرط الإيمان والولاية : « حسن الخاتمة » :

والدليل على ذلك اتفاق الأمة على أن مَن كان مؤمناً ثم ارتد فإنه لا يُحكم بأن إيمانه الأول كان فاسداً بمنزلة مَن أفسد الصلاة والصيام والحج قبل الإكمال ، وإنما يقال كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكفُرْ بالإيمَانِ فَقَدْ حَبطَ عَمَلُهُ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .. ولو كان فاسداً فى نفسه لوجب أن يُحكم بفساد أنكحته المتقدمة وتحريم ذبائحه وبطلان عباداته جميعها ، حتى لو كان قد حَجَّ عن غيره كان حجه باطلاً ، ولو صلّى مدة بقوم ثم ارتد كان لهم أن يعيدوا صلاتهم خلفه ، ولو شهد أو حكم ثم ارتد أن تفسد شهادته وحكمه ونحو ذلك . وكذلك أيضاً الكافر إذا تاب من كفره ولو كان محبوباً لله ولياً له فى حال كفره لوجب أن يقضى بعدم أحكام ذلك الكافر ، وهذه كلها خلاف ما ثبت بالكتاب والسُنّة والإجماع .

والكلام فى هذه المسألة نظير الكلام فى الآجال والأرزاق ونحو ذلك ، وهى أيضاً على قاعدة الصفات الفعلية وهى قاعدة كبيرة ، وعلى هذا يخرج جواب السائل .

فمَن قال : إنّ ولى الله لا يكون إلاّ مَن وافاه حين الموت بالإيمان والتقوى ، فالعلم بذلك أصعب عليه وعلى غيره . ومَن قال : قد يكون ولى الله مَن كان مؤمناً تقياً وأن يَعلم عاقبته ، فالعلم بذلك أسهل ، ومع هذا يمكن العلم بذلك للولى نفسه ولغيره ولكنه قليل ، ولا يجوز التهجم بالقطع على ذلك . فمن ثبتت ولايته لله بالنص وأنه من أهل الجنة كالعشرة وغيرهم ، فعامة أهل السُنّة يشهدون له بما شهد له به النص . وأما مَن شاع له لسان صدق من الأمة بحيث اتفقت الأمة على الثناء عليه فهل يُشهد له بذلك ؟ هذا فيه نزاع بين أهل السُنّة ، والأشبه أن يُشهد له بذلك ، هذا فى الأمر العام .

---

(١) المائدة : ٥ (٢) الزمر : ٦٥ (٣) الأنعام : ٨٨

• الولاية لا تقتضى العصمة من الخطأ والذنب :

وأما خواص الناس فقد يعلمون عواقب أقوام بما يكشفه الله لهم . لكن ليس هذا مما يجب التصديق العام به ، فإن كثيراً مما يُظنُ به أنه حصل له هذا الكشف يكون ظاناً فى ذلك ظناً لا يُغنى من الحق شيئاً ، وأهل المكاشفات والمخاطبات يصيبون تارة ويخطئون أخرى كأهل النظر والاستدلال فى موارد الاجتهاد ، ولهذا وجب عليهم جميعهم أن يعتصموا بكتاب الله وسُنَّة رسوله ، وأن يزنوا مواجيدهم ومشاهداتهم وآراءهم ومعقولاتهم بكتاب الله وسُنَّة رسوله لا يكتفوا بمجرد ذلك ، فإن سيد المُحَدَّثين المُخاطبين المُلهَمين من هذه الأمة هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد كان تقع له وقائع يردها عليه رسول الله ﷺ ، وصديقه التابع له الآخذ عنه ، الذى هو أكمل من المحدَّث الذى يُحدِّث نفسه عن ربه ولهذا أوجب على جميع الخلق اتباع الرسول ﷺ وطاعته فى جميع أمورهم الباطنة والظاهرة ، ولو كان أحد يأتيه من الله ما لا يحتاج إلى عرضه على الكتاب والسُنَّة لكان مستغنياً عن الرسول فى بعض دينه ، وهذا من أقوال المارقين الذين يظنون أن من الناس مَن يكون مع الرسول كالخضر مع موسى ، ومَن قال هذا فهو كافر . وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ من رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إلا إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فى أُمْنِيَّته فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاته ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) فقد ضمن الله للرسول وللنبى أن ينسخ ما يلقى الشيطان فى أمنيته ولم يضمن ذلك للمُحَدَّث ، ولهذا كان فى الحرف الآخر الذى كان يقرأ به ابن عباس وغيره : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ولا محدث إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته » .

ويُحتمل - والله أعلم - أن يكون هذا الحرف متلواً حيث لم يضمن نسخ ما ألقى الشيطان ، فأما نسخ ما ألقى الشيطان فليس إلا للأنبياء والمرسلين إذ هم

---

(١) الحج : ٥٢

معصومون فيما يُبَلِّغون عن الله تعالى أن يستقر فيه شيء من إلقاء الشيطان ، وغيرهم لا يجب عصمته من ذلك وإن كان من أولياء الله المتقين ، فليس من شرط أولياء الله المتقين أن لا يكونوا مخطئين فى بعض الأشياء خطأً مغفوراً لهم ، بل ولا من شرطهم ترك الصغائر مطلقاً ، بل ولا من شرطهم ترك الكبائر أو الكفر الذى تعقبه التوبة وقد قال تعالى : ﴿ وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُم مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ، ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) فقد وصفهم الله تعالى بأنهم هم المتقون ، والمتقون هم أولياء الله ومع هذا باجزائه ويكفر عنهم أسوأ الذى عملوا (٢) وهذا أمر متفق عليه بين أهل العلم والإيمان ، وإنما يخالف فى ذلك الغالية من الرافضة وأشباه الرافضة من الغالية فى بعض المشايخ ومَن يعتقدون أنه من الأولياء ، فالرافضة تزعم أن الإثنى عشر معصومون من الخطأ والذنب ، ويرون هذا من أُصول دينهم ، والغالية فى المشايخ قد يقولون إنَّ الولى محفوظ والنبى معصوم ، وكثير منهم لم يقل ذلك بلسانه فحاله حال مَن يرى أن الشيخ أو الولى لا يخطىء ولا يذنب ، وقد يبلغ الغلو بالطائفتين إلى أن يجعلوا بعض مَن غلوا فيه بمنزلة النبى أو أفضل منه ، وإن زادوا الأمر جعلوا له نوعاً من الإلهية ، وكل هذا من الضلالات الجاهلية المضاهئة للضلالات النصرانية ، فإن فى النصارى من الغلو فى المسيح والرهبان والأحبار ما ذمهم الله عليه فى القرآن وجعل ذلك عبرة لنا لئلا نسلك سبيلهم ، ولهذا قال سيد ولد آدم : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » .

* * *

---

(١) الزمر : ٣٣ - ٣٥

(٢) كذا فى الأصل وهو محرف ، والمعنى الذى يدل عليه السياق : أنهم مع هذا يسيئون ولكن الله يكفِّر عنهم أسوأ الذى عملوا ، أى لغلبة إحسانهم على سيئاتهم .

فصل

فى أصناف الفقراء والأغنياء وأحكامهم

وأما الفقراء الذين ذكرهم الله تعالى فى كتابه فهم صنفان : مستحقو الصدقات ، ومستحقو الفيء . أما المستحقون للصدقات فقد ذكرهم الله فى قوله : ﴿ إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِىَ ، وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (١) ، وفى قوله : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ (٢) وإذ ذكر فى القرآن اسم المسكين وحده أو الفقير وحده كقوله : ﴿ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ ﴾ (٣) فهما شىء واحد ، وإذا ذكرا جميعاً فهما صنفان .

والمقصود بهما أهل الحاجة ، وهم الذين لا يجدون كفايتهم لا من مسألة ولا من كسب يقدرون عليه ، فمَن كان كذلك من المسلمين استحق الأخذ من صدقات المسلمين المفروضة والموقوفة والمنذورة والموصى بها ، وبين الفقهاء نزاع فى بعض فروع هذه المسائل معروفة عند أهل العلم .

وضد هؤلاء : الأغنياء الذين تحرم عليهم الصدقة ، ثم هم نوعان : نوع تجب عليه الزكاة وإن كانت الزكاة تجب على مَن قد تُباح له عند جمهور العلماء ، ونوع لا تجب عليه ، وكل منهما قد يكون له فضل عن نفقاته الواجبة وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ (٤) وقد لا يكون له فضل . وهؤلاء الذين رزقهم قوت وكفاف فهم أغنياء باعتبار غناهم عن الناس ، وهم فقراء باعتبار أنه ليس لهم فضول يتصدقون بها ، وإنما يسبق الفقراء الأغنياء إلى الجنة بنصف يوم لعدم فضول الأموال التى يحاسبون على مخارجها ومصارفها ، فمن لم يكن له فضل كان من هؤلاء وإن لم يكن من أهل الزكاة .

---

(١) البقرة : ٢٧١ (٢) التوبة : ٦٠

(٣) المائدة : ٨٩ (٤) البقرة : ٢١٩

ثم أرباب الفضول ، إن كانوا محسنين فى فضول أموالهم فقد يكونون بعد دخول الجنة أرفع درجة من كثير من الفقراء الذين سبقوهم كما يقدَّم أغنياء الأنبياء والصدِّيقين عن السابقين وغيرهم على الفقراء الذين دونهم . ومن هنا قال الفقراء: ذهب أهل الدثور بالأجور ، وقيل : لما ساواهم الأغنياء فى العبادات البدنية وامتازوا عنهم بالعبادات المالية ، ذلك فضل اللّه يؤتيه مَن يشاء ، فهذا هو الفقير فى عُرف الكتاب والسُنَّة .

وقد يكون الفقراء سابقين ، وقد يكونون مقتصدين ويكونون ظالمى أنفسهم كالأغنياء . وفى كلا الطائفتين المؤمن الصدِّيق ، والمنافق الزنديق .

وأما المستأخرون ، فالفقير - فى عُرفهم - عبارة عن السالك إلى اللّه تعالى كما هو الصوفى فى عُرفهم أيضاً ، ثم منهم مَن يُرجِّح مسمى الصوفى لأنه عنده الذى قطع العلائق كلها ولم يتقيد فى الظاهر بغير الأمور الواجبة ، وهذه منازعات لفظية اصطلاحية ، والتحقيق أن المراد المحمود بهذين الاسمين داخل فى مسمى الصدِّيق أو الولى والصالح ، ونحو ذلك من الأسماء التى جاء بها الكتاب والسُنَّة ، فمن حيث دخل فى الأسماء النبوية يترتب عليه من الحكم ما جاءت به الرسالة .

وأما ما تميزَّ به مما يعده صاحبه فضلاً وليس بفضل ، أو مما يوالى عليه صاحبه غيره ونحو ذلك من الأمور التى يترتب عليها زيادة الدرجة فى الدنيا ، فهى أمور مهدرة فى الشريعة إلا إذا جعلت من المباحات من الأمور المستحبات [1] ، وأما ما يقترن بذلك من الأمور المكروهة فى دين اللّه من أنواع البِدع والفجور فيجب النهى عنه كما جاءت به الشريعة .

* * *

(١) كذا فى نسختنا ، ولا يظهر له معنى جلى بغير تكلف ، ولعل أصله : إذا جعلت المباحات مما ذكر من المستحبات بالنية الصالحة كالسياحة - الأصل فيها الإباحة - وقد تكون مستحبة إذا نوى بها أمر مستحب شرعاً كتحصيل العلوم والفنون النافعة غير الواجبة شرعاً كما تكون واجبة ، وفنون الصناعات التى تتوقف عليها المصالح المعاشية والحربية من فروض الكفايات .

فصل

فى الكلام على الأوتاد والأبدال والنجباء ، والدليل على بطلانه

وأما الأسماء الدائرة على ألسنة كثير من النسّاك والعامة مثل : الغوث الذى يكون بمكة ، والأوتاد الأربعة ، والأقطاب السبعة ، والأبدال الأربعين ، والنجباء الثلاثمائة [1] ... فهذه الأسماء ليست موجودة فى كتاب اللّه ولا هى أيضاً مأثورة عن النبى ﷺ ، لا بإسناد صحيح ولا ضعيف محتمل ، إلا لفظ « الأبدال » فقد رُوِىَ فيهم حديث شامى منقطع الإسناد عن علىّ بن أبى طالب مرفوعاً إلى النبى ﷺ أنه قال : « إنَّ فيهم - يعنى أهل الشام - الأبدال أربعين رجلاً ، كلما مات رجل أبدل اللّه مكانه رجلاً » ولا توجد هذه الأسماء فى كلام السَلَف كما هى على هذا الترتيب ، ولا هى مأثورة على هذا الترتيب والمعانى عن المشايخ المقبولين عند الأمة قبولاً عامًا ، وإنما توجد على هذه الصورة عن بعض المتوسطين من المشايخ وقد قالها إما أثراً لها عن غيره أو ذِكراً . وهذا الجنس ونحوه من العلم الذى قد التبس على أكثر المتأخرين حقه بباطله ، فصار فيه من الحق ما يوجب قبوله ، ومن الباطل ما يوجب رده . وصار كثير من الناس فيه على طرفى نقيض ، قوم كذّبوا به كله لِما وجدوا فيه من الباطل ، وقوم صدّقوا به كله لِما وجدوا فيه من الحق ، وإنما الصواب التصديق بالحق والتكذيب بالباطل ، وهذا تحقيق بما أخبر به النبى ﷺ من ركوب هذه الأمة سُنَن مَن كان قبلها حذو القِذّة بالقِذّة ، فإن أهل الكتابين لبَّسوا الحق بالباطل ، وهذا هو التبديل والتحريف الذى وقع فى دينهم ، ولهذا يعتبر [2] الدين بالتبديل تارة وبالنسخ أخرى .

---

(١) انظر ص ٦٠ - ٦١ من هذا الجزء .

(٢) لعل الأصل : يتغير - بدل : يعتبر .

وهذا الدين لا يُنسخ أبداً لكن يكون فيه مَن يُدخل فيه من التحريف والتبديل والكذب والكتمان ما يُلبِّس به الحق بالباطل ، ولا بد أن يقيم الله فيه مَن تقوم به الحجة خَلَفاً عن الرسل ، فينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين [1] ، ليُحِقَّ الله الحق ويُبطل الباطل ولو كره المشركون . فبالكتب المنَزلة من السماء والآثار من العلوم المأثورة عن الأنبياء يميز الله الحق من الباطل ويحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه .

وبذلك يتبين أن هذه الأسماء على هذا العدد والترتيب والطبقات ليست حقاً فى كل زمان ، بل يجب القطع بأن هذا على عمومه وإطلاقه باطل ، فإن المؤمنين يقلون تارة ويكثرون أخرى ، ويقل فيهم السابقون المقرَّبون تارة ، ويكثرون أخرى ، وينتقلون فى الأمكنة ، ليس من شرط أولياء الله أهل الإيمان والتقوى ومَن يدخل منهم فى السابقين المقرَّبين لزوم مكان واحد فى جميع الأزمنة .

وقد بعث الله رسوله بالحق وآمن معه بمكة نفر قليل كانوا أقل من سبعة ، ثم أقل من أربعين ، ثم أقل من سبعين ، ثم أقل من ثلاثمائة ، فيُعلم أنه لم يكن فيهم هذه الأعداد ، ومن الممتنع أن يكون منهم مَن كان فى الكفار .

ثم هاجر هو وأصحابه إلى المدينة وكانت هى دار الهجرة والسُنَّة والنُصرة ، ومستقر النبوَّة وموضع خلافة النبوَّة ، وبها انعقدت بيعة الخلفاء الراشدين أبى بكر وعثمان وعمر وعلىّ ، وإن كان « علىّ » قد خرج منها بعد أن بويع له فيها . ومن الممتنع أنه قد كان بمكة فى زمنهم مَن يكون أفضل منهم .

ثم إن الإسلام انتشر فى مشارق الأرض ومغاربها ، وكان فى المؤمنين فى كل وقت من أولياء الله المتقين بل من الصدِّيقين السابقين المقرَّبين مَن لا يحصى عدده إلاَّ رب العالمين ، لا يحصون بثلاثمائة ولا بثلاثة آلاف ، ولما انقرضت القرون الثلاثة الفاضلة كان أيضاً فى القرون الخالية من أولياء الله المتقين بل من السابقين مَن جعل لهم عدداً محصوراً لازماً فهو من المتظلمين عمداً أو خطأً .

---

(١) هذا حديث أوله : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله يبغون عنه .... » .إلخ .

● لفظ الغوث ، وامتناع الاستغاثة بغير الله :

وأما لفظ الغوث والغياث فلا يستحقه إلاّ الله تعالى فهو غياث المستغيثين ، لا يجوز لأحد الاستغاثة بغيره لا بملك مقرّب ، ولا نبى مُرسل . ومَن زعم أن أهل الأرض يرفعون حوائجهم التى يطلبون بها كشف الضر عنهم ، ونزول الرحمة بهم ، إلى الثلاثمائة ، والثلاثمائة إلى السبعين ، والسبعين إلى الأربعين ، والأربعين إلى السبعة ، والسبعة إلى الأربعة ، والأربعة إلى الغوث - فهو كاذب ضال مشرك ، فقد كان المشركون كما أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ (٢) فكيف يكون المؤمنون يرفعون إليه حوائجهم بعدة وسائط من الحُجّاب وهو القائل تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (٣) .

وقال الخليل عليه السلام داعياً لأهل مكة : ﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ، وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَىْءٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ، إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (٤) ، وقال النبى ﷺ لأصحابه لما رفعوا أصواتهم بالتلبية : « أيها الناس ، أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً ، وإنما تدعون سميعاً قريباً ، إنّ الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

---

(١) الإسراء : ٦٧
(٢) النمل : ٦٢
(٣) البقرة : ١٨٦
(٤) إبراهيم : ٣٧ - ٤٠

وهذا باب واسع وقد علم المسلمون كلهم أنه لم يكن عامة المسلمين ولا مشايخهم المعروفون يرفعون إلى اللّه حوائجهم لا ظاهراً ولا باطناً بهذه الوسائط والحُجَّاب ، فتعالى اللّه عن تشبيهه بالمخلوقين من الملوك وسائر ما يقوله الظالمون علواً كبيراً .

- التشابه بين الرافضة والباطنية [1] والصوفية :

وهذا من جنس دعوى الرافضة أنه لا بد فى كل زمان من إمام معصوم يكون حُجَّة اللّه على المكلّفين لا يتم الإيمان إلاّ به ، ثم مع هذا يقولون إنه كان صبياً دخل السرداب من أكثر من أربعمائة وأربعين سنة ولا يُعرف له عين ولا أثر ولا يُدرك له حس ولا خبر .

- الأوتاد والقطب والأبدال :

وهؤلاء الذين يدّعون هذه المراتب فيهم معناها للرافضة من بعض الوجوه ، بل هذا الترتيب والاعتداد يشبه من بعض الوجوه ترتيب الإسماعيلية والنصيرية ونحوهم فى السابق ، والتالى ، والناطق ، والأساس ، والجسد ... وغير ذلك من الترتيب الذى ما أنزل اللّه به من سلطان .

وأما « الأوتاد » فقد يوجد فى كلام بعضهم أنه يقول : فلان من الأوتاد ، ومعنى ذلك أن اللّه يُثَبِّت به من الدين والإيمان فى قلوب مَن يهديهم اللّه به كما يُثَبِّت الأرض بأوتادها ، وهذا المعنى ثابت لكل مَن كان بهذه الصفة ، فكل مَن حصل به تثبيت العلم والإيمان فى جمهور الناس كان بمنزلة الأوتاد العظيمة

---

(١) الرافضة : فرقة من الشيعة تجيز الطعن فى الصحابة ، سموا بذلك لأن أوائلهم رفضوا زيد ابن على حين نهاهم عن الطعن فى الشيخين ، وقيل لأنهم رفضوا خلافة أبى بكر وعمر وعثمان رضى اللّه عنهم .

والباطنية : فرق إسلامية عدة ، يجمعها أنها ترى لكل ظاهر باطناً ، مع صرف العناية إلى الباطن دون الظاهر ، ومن هذه الفرق التى يشملها اسم الباطنية : الإسماعيلية ، والقرامطة ، والحرامية ، بل قد يشمل الاسم فرقاً غير إسلامية كالمزدكية - وانظر ص ٧٦ (البلتاجى) .

والجبال الكبيرة ، ومَن كان دونه كان بحسبه ، وليس ذلك محصوراً فى أربعة ولا أقل ولا أكثر ، بل جعل هؤلاء أربعة مضاهاة لقول المنجمين فى أوتاد الأرض .

* * *

فصل

فى تفصيل القول فى القطب والأبدال

وأما « القطب » فيوجد فى كلامهم أيضاً : فلان من الأقطاب وفلان قطب ، فكل مَن دار عليه أمر من أمور الدين والدنيا ، باطناً أو ظاهراً ، فهو قطب ذلك الأمر ومداره سواء أكان الدائر عليه أمر دارة أو قرية أو مدينة ، أمر دينها أو دنياها باطناً أو ظاهراً ، ولا اختصاص لهذا المعنى بسبعة ولا أقل ولا أكثر ، لكن الممدوح مَن ذلك من كان مداراً لصلاح الدين دون مجرد صلاح الدنيا ، وهذا هو القطب فى عُرفهم ، وقد يتفق فى عصر آخر أن يتكافأ اثنان أو ثلاثة فى الفضل عند اللّه ولا يجب أن يكون فى كل زمان شخص واحد هو أفضل الخلق عند اللّه مطلقاً .

وكذلك لفظ « البدل » جاء فى كلام كثير منهم ، فأما الحديث المرفوع فالأشبه أنه ليس من كلام النبى ﷺ ، فإن الإيمان كان بالحجاز واليمن قبل فتوح الشام ، وكانت الشام والعراق دار كفر ، ثم فى خلافة علىّ قد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال : « تمرق مارقة على خير فرقة من المسلمين يقتلهم أولى الطائفتين بالحق » فكان علىّ وأصحابه أولى بالحق ممن قاتلهم من أهل الشام ، ومعلوم أن الذين كانوا مع علىّ من الصحابة مثل عمار وسهل بن حنيف ونحوهما كانوا أفضل من الذين مع معاوية ، وإن كان سعد بن أبى وقاص ونحوه من القاعدين أفضل ممن كان معهما ، فكيف يُعتقد مع هذا أن الأبدال جميعهم الذين هم

أفضل الخلق كانوا فى أهل الشام ؟ هذا باطل قطعاً ، وإن كان قد ورد فى الشام وأهله فضائل معروفة فقد جعل الله لكل شىء قدراً .

والكلام يجب أن يكون بالعلم وبالقسط ، فمَن تكلم فى الدين بغير علم دخل فى قوله : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (١) ، وفى قوله : ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَالَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) ، ومن لم يتكلم بقسط وعدل خرج من قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ (٣) ، ومن قوله : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ ﴾ (٤) ، ومن قوله : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (٥) .

والذين تكلموا باسم البدل أفردوه بمعان منها : أنهم أبدال (٦) ، ومنها أنهم كلما مات منهم رجل أبدل الله مكانه رجلاً ، ومنها أنهم أبدلوا السيئات من أخلاقهم وأعمالهم وعقائدهم بالحسنات ، وهذه الصفات كلها لا تختص بأربعين ولا بأقل ولا أكثر ، ولا تُحصر بأهل بقعة من الأرض ، وبهذا التحرير يظهر المعنى باسم « النجباء » . فالغرض أن هذه الأسماء تارة تُفسَّر بمعان باطلة بالكتاب والسُنَّة وإجماع السَلَف ، مثل تفسير بعضهم بأن « الغوث » هو الذى يغيث الله به أهل الأرض من رزقهم ونصرهم . فإن هذا نظير ما تقوله النصارى فى الباب وهو معدوم العين والأثر ، وتشبيه بحال « المنتَظر » الذى دخل السرداب من نحو أربعمائة وأربعين سنة ، وكذلك مَن فسر الأربعين الأبدال بأن الناس إنما يُنصرون ويُرزقون بهم فذلك باطل ، بل النصر والرزق يحصل بأسباب من أوكدها دعاء المسلمين المؤمنين وصلاتهم وإخلاصهم ، ولا يتقيد ذلك لا بأربعين ولا بأقل ولا أكثر ، كما فى الحديث المعروف أن سعد بن أبى وقاص قال :

---

(١) الإسراء : ٣٦ (٢) البقرة : ١٦٩ (٣) النساء : ١٣٥

(٤) الأنعام : ١٥٢ (٥) الحديد : ٢٥

(٦) كذا ، وقد سقط منه المضاف إليه وأتذكر أنهم قالوا : أبدال الأنبياء .

يا رسول الله ، الرجل يكون حامية القوم أيُسهَم له مثل ما يُسَهم لضعفتهم ؟ فقال : « يا سعد ، وهل تُنصرون وتُرزقون إلاّ بضعفائكم بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم » ، وقد يكون للنصر والرزق أسباب أُخر فإنّ الكفّار أيضاً والفجّار يُنصرون ويُرزقون . وقد يُجدب الله الأرض على المؤمنين ويخيفهم من عدوهم ، لينيبوا إليه ويتوبوا من ذنوبهم ، فيجمع لهم بين غفران الذنوب ، وتفريج الكروب ، وقد يُملى للكفار ويُرسل السماء عليهم مدراراً ويمدهم بأموال وبنين ويستدرجهم من حيث لا يعلمون ، إما ليأخذهم فى الدنيا أخذ عزيز مقتدر ، وإما ليُضَعِّف عليهم العذاب فى الآخرة ، فليس كل إنعام كرامة ولا كل امتحان عقوبة ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ * كَلا ﴾ (١) .

* * *

فصل

فى رجال الغيب والغوث وخاتم الأولياء

وليس فى أولياء الله المتقين بل ولا أنبياء الله ولا المرسلين مَن كان غائب الجسد دائماً عن أبصار الناس ، بل هذا من جنس قول القائل بأن علياً فى السحاب ، وأن محمد ابن الحنفية فى جبال رضوى ، وأن محمد بن الحسن فى سرداب سامرا ، وأن الحاكم فى جبل مصر ، وأن الأبدال رجال الغيب فى جبل لبنان . فكل هذا ونحوه من قول أهل الإفك والبهتان ، نعم قد تُخرق العادة فى حق الشخص فيغيب تارة عن أبصار الناس إما لدفع عدو عنه وإما لغير ذلك . وأما أنه يكون هكذا طول عمره فباطل ، نعم يكون نور قلبه وهدى فؤاده

---

(١) الفجر : ١٥ - ١٧

وما فيه من أسرار اللّه وأمانته وأنواره ومعرفته غيباً عن الناس ، ويكون صلاحه وولايته غيباً عن أكثر الناس ، فهذا هو الواقع . وأسرار الحق بينه وبين أوليائه وأكثر الناس لا يعلمون .

* * *

فصل

فى بطلان اسم الغوث مطلقاً

وقد بيّنا عن بطلان اسم الغوث مطلقاً واندرج فى ذلك غَوث العرب والعجم ومكة والغوث السابع ، وكذلك لفظ « خاتم الأولياء » لفظ باطل لا أصل له ، وأول مَن ذكره محمد بن على الحكيم الترمذى ، وقد انتحله طائفة كل منهم يدّعى أنه خاتم الأولياء كابن حمويه وابن العربى وغيرهما ، وكل منهم يدّعى أنه أفضل من النبى ﷺ من بعض الوجوه ... إلى غير ذلك من الكفر والبهتان وكل طمعاً فى رياسة خاتم الأنبياء .

وقد غلطوا ، فإن خاتم الأنبياء إنما كان أفضلهم للأدلة الدالة على ذلك ، وليس كذلك للأولياء ، فإن أفضل أولياء هذه الأمة السابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار ، وخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ، وخير قرونها القرن الذى بُعِثَ فيهم النبى ﷺ ، ثم الذى يلونهم ثم الذى يلونهم . وخاتم الأولياء فى الحقيقة هو آخر مؤمن تقى يكون من الناس ، وليس ذلك بخير الأولياء ولا أفضلهم ، بل خيرهم وأفضلهم أبو بكر ثم عمر اللذان ما طلعت الشمس وما غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل منهما .

* * *

فصل

فى القلندرية والملامتية [1]

وأما هؤلاء القلندرية المحلقين اللحى فمن أهل الضلالة والجهالة وأكثرهم كافرون بالله ورسوله لا يرون وجوب الصلاة والصيام ولا يُحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق ، بل كثير منهم أكفر من اليهود والنصارى ، وهم ليسوا من أهل الملة ولا من أهل السُنَّة ، وقد يكون فيهم مَن هو مسلم لكن مبتدع ضال أو فاسق فاجر . ومَن قال إن « قلندر » كان موجوداً فى زمن النبى ﷺ فقد كذب وافترى ، بل قد قيل : أصل هذا الصنف أنهم كانوا قوماً من نُسَّاك الفُرس يدورون على ما فيه راحة قلوبهم بعد أداء الفرائض واجتناب المحرَّمات ، هكذا فسَّرهم الشيخ أبو حفص السهروردى فى عوارفه . ثم إنهم بعد ذلك تركوا الواجبات وفعلوا المحرَّمات بمنزلة الملامتية الذين كانوا يُخفون حسناتهم ويُظهرون ما لا يظن بصاحبه الصلاح من زى الأغنياء ولبس العمامة ، فهذا قريب وصاحبه مأجور على نيته ، ثم حدث قوم فدخلوا فى أمور مكروهة

---

(١) القلندرية : طريقة صوفية أسسها « قلندر يوسف العربى الأسبانى » ، وجاء بها إلى دمياط الشيخ جمال الدين الساوى .

أما الملامتية : فهم طائفة صوفية من زعمائها ومؤسسيها أبو عثمان الحيرى المتوفى سنة ٢٩٨ هـ وقد رأت هذه الطائفة أن العالم شر لا خير فيه ، ولذلك أوجبوا على أنفسهم التزام الحزن والكمد ورؤية التقصير فى جميع الأفعال ، ويفنون بهذا عن أعمالهم ويستهترون فيها جلباً للملامة وتعرضاً لذم الخلق بدلاً من مدحهم ، والاتجاه دائماً نحو أنفسهم باللوم والشك فيها والنظر إليها نظرة التقصير ، فالاتحادية يفنون عن أنفسهم ، والملامتية يفنون عن أعمالهم .

ويعتقد الملامتية أنهم يقومون مع الحق تعالى على حفظ أوقاتهم ومراعاة أسرارهم ، فيلومون أنفسهم على جميع ما يظهرون من أنواع القرب والعبادات ، ويظهرون للخلق قبائح ما هم فيه ، ويكتمون عنهم محاسنهم ، فيلومهم الخلق على ظواهرهم ، ويلومون أنفسهم على ما يعرفونه من بواطنهم . (البلتاجى)

فى الشريعة ثم زاد الأمر ففعل قوم المحرّمات من الفواحش والمنكرات ، وترك الفرائض والواجبات ، وزعموا أن ذلك دخول منهم فى الملاميات . ولقد صدقوا فى استحقاقهم اللوم والذم والعقاب من اللّه فى الدنيا والآخرة . وتجب عقوبتهم جميعهم ومنعهم من هذا الشعار الملعون كما يجب ذلك فى كل معين ببدعة أو فجور ، وليس ذلك مختصاً بهم بل كل مَن كان من المتنسكة والمتفقهة والمتعبدة والمتفقرة والمتزهدة والمتكلمة والمتفلسفة ومَن وافقهم من الملوك والأغنياء والكُتّاب والحُسّاب والأطباء وأهل الديوان والعامة خارجاً عن الهدى ودين الحق الذى بعث اللّه به رسوله باطناً وظاهراً مثل مَن يعتقد أن شيخه يرزقه وينصره أو يهديه أو يُغيثه ، أو كان يعبد شيخه ويدعوه ويسجد له ، أو كان يُفَضّله على النبى ﷺ تفضيلاً مطلقاً أو مقيّداً فى شىء من الفضل الذى يُقَرّب إلى اللّه تعالى ، أو كان يرى أنه هو وشيخه مستغن عن متابعة الرسول ، فكل هؤلاء كفار إن أظهروا ، ومنافقون إن أبطنوا ، وهؤلاء الأجناس وإن كانوا قد كثروا فى هذه الأزمان ، فلقلة دعاة العلم والإيمان ، وفتور آثار الرسالة فى أكثر البلدان ، وأكثر هؤلاء ليس عندهم من آثار الرسالة وميراث النبوّة ما يعرفون به الهدى ، وكثير منهم لم يبلغهم ذلك . وفى أوقات الفترات وأمكنة الفترات يُثاب الرجل على ما معه من الإيمان القليل ، ويغفر اللّه فيه لمن لم يقم الحجة عليه ما لا يغفر به لمن قامت الحجة عليه كما فى الحديث المعروف : « يأتى على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولا صياماً ولا حجاً ولا عُمرة إلا الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة ويقولون : أدركنا آباءنا وهم يقولون : لا إله إلاّ اللّه » فقيل لحذيفة بن اليمان : ما تغنى عنهم لا إله إلاّ اللّه ؟ فقال : تنجيهم من النار ، تنجيهم من النار ، تنجيهم من النار .

● شروط تكفير مرتكب المكفرات :

وأصل ذلك أن المقالة التى هى كفر بالكتاب أو السُنّة أو الإجماع يقال : هى كفر قولاً يُطلَق ، كما دلّ على ذلك الدليل الشرعى ، فإن الإيمان من الأحكام المتلقاة عن اللّه ورسوله ليس ذلك مما يحكم فيه الناس بظنونهم وأهوائهم .

ولا يجب أن يُحكم فى كل شخص قال ذلك بأنه كافر حتى يثبت فى حقه شروط التكفير وتنفى موانعه ، مثل مَن قال إن الخمر أو الربا حلال لقُرب عهده بالإسلام أو لنشوئه فى بادية بعيدة ، أو سمع كلاماً [1] أنكره ولم يعتقد أنه من القرآن ولا أنه من أحاديث رسول الله ﷺ ، كما كان بعض السَلف ينكر أشياء حتى يثبت عنده أن النبى ﷺ قالها ، وكما كان الصحابة يشكُّون فى أشياء مثل رؤية الله وغير ذلك حتى يسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ ، ومثل الذى قال : إذا أنا مت فاسحقونى وذرونى فى اليَمِ لعلّى أضل عن الله ... ونحو ذلك ، فإن هؤلاء لا يكفرون حتى تقوم عليهم الحجة بالرسالة كما قال الله تعالى : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [2] ، وقد عفا الله لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان . وقد أشبعنا الكلام فى القواعد التى فى هذا الجواب فى أماكنها ، والفتوى لا تحتمل البَسط أكثر من هذا .

* * *

فصل

فى تحريم اتخاذ القبور مساجد وأعياداً

وأما النذر للقبور أو لسكان القبور أو العاكفين على القبور سواء أكانت قبور الأنبياء أو الصالحين ، فهو نذر حرام باطل يشبه النذر للأوثان سواء أكانت نذر زيت أو شمع أو غير ذلك ، قال النبى ﷺ : « لعن الله زوّارت القبور والمتخذين عليها المساجد والسُرُج » [3] ، وقال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا

---

(١) لعله سقط من هنا وصف لهذا بأنه « من كلام الله أو رسوله ﷺ » .

(٢) النساء : ١٦٥

(٣) رواه أبو داود والترمذى والنسائى والحاكم من حديث ابن عباس بلفظ : « زائرات » وسنده صحيح ، و « لعن الله زوّارات القبور » حديث آخر صحيح أيضاً .

قبور أنبيائهم مساجد » يُحَذِّر ما فعلوا [١] ، وقال : « إن مَن كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك » [٢] ، وقال : « اللّهم لا تجعل قبرى وثناً يُعبد من بعدى » [٣] .

وقد اتفق أئمة الدين على أنه لا يُشرع بناء المساجد على القبور ، ولا أن تُعلّق عليها الستور ، ولا أن يُنذر لها النذور ، ولا أن يوضع عندها الذهب والفضة . بل حكم هذه الأموال أن تُصرف فى مصالح المسلمين إذا لم يكن لها مستحق معين . ويجب هدم كل مسجد بُنِىَ على قبر كائنا مَن كان الميت . فإن ذلك من أكبر أسباب عبادة الأوثان كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً * وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيراً ﴾ [٤] وقال طائفة من السَلَف : هذه أسماء قوم صالحين لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم عبدوهم . ومَن نَذَرَ لها نذراً لم يجز له الوفاء ، لما ثبت فى الصحاح عن النبى ﷺ أنه قال : « مَن نَذَرَ أن يطيع اللّه فليطعه ، ومَن نَذَرَ أن يعصى اللّه فلا يعصه » وعليه كفارة يمين [٥] ، ولما رُوِىَ عنه أنه قال : « لا نذر فى معصية وكفارته كفارة يمين » [٦] .

ومن العلماء مَن لا يوجب عليه إلاّ الاستغفار والتوبة . ومن الحسن أن يصرف ما نذره فى نظيره من المشروع مثل أن يصرف الدهن إلى تنوير المساجد ، والنفقة إلى صالحة فقراء المؤمنين وإن كانوا من أقارب الشيخ ونحو ذلك . وهذا الحكم

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة ، وفى بعض الروايات تعليل آخر لهذا اللعن غير تحذير المسلمين عن اتخاذ القبور مساجد وهو قولها : ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً .

(٢) هذه جملة من حديث آخر لها فى هذا الموضوع عند مسلم ، وهنالك ألفاظ أخرى بمعنى واحد وصرحت بأنه ﷺ قال ذلك فى مرضه الأخير قبل وفاته بخمسة أيام .

(٣) رواه مالك فى الموطأ .

(٤) نوح : ٢٣ - ٢٤

(٥) رواه أحمد والبخارى وأصحاب السُنَن الأربعة عن عائشة .

(٦) رواه أحمد وأصحاب السُنن عنها أيضاً وهو صحيح .

عام فى قبر نفيسة ومَن هو أكبر من نفيسة من الصحابة مثل قبر طلحة والزبير وغيرهما بالبصرة ، وقبر سلمان الفارسى وغيره بالعراق ، والمشاهد المنسوبة إلى علىّ رضى الله عنه والحسين وموسى وجعفر ، وقبر مثل معروف الكرخى وأحمد ابن حنبل وغيرهم رضى الله عنهم .

● عدم فائدة النذر ، ومنه ما هو كفر :

ومَن اعتقد أن بالنذور لهم نفعاً أو أجراً ما فهو ضال جاهل . فقد ثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ نهى عن النذر وقال : « إنه لا يأتى بخير وإنما يُستخرج به من البخيل » [1] ، وفى رواية : « إنما يلقى ابن آدم إلى القدر » ، فإذا كان هذا فى نذر الطاعة فكيف فى نذر المعصية ؟ فيعتقدون أنها باب الحوائج إلى الله ، وأنها تكشف الضر وتفتح الرزق وتحفظ مصر ، فهذا كافر مشرك يجب قتله ، وكذلك مَن اعتقد ذلك فى غيرها كائناً مَن كان ﴿ قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾ [2] ، ﴿ قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ ، لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلا فِى الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّنْ ظَهِيرٍ * وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ .. ﴾ [3] ، ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ ، مَا لَكُم مِّنْ دُونِهِ مِن وَلِىٍّ وَلا شَفِيعٍ ، أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [4] ، ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُواْ إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، فَإِيَّاىَ فَارْهَبُونَ * وَلَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأصحاب السنن من حديث عبد الله بن عمر إلاّ الترمذى ، ومن حديث أبى هريرة إلاّ أبا داود - وفى رواية « إنه لا يرد شيئاً » بدل : لا يأتى بخير .

(٢) الإسراء : ٥٦ ، ٥٧ (٣) سبأ : ٢٢ - ٢٣ (٤) السجدة : ٤

وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً ، أَفَغَيْرَ اللَّه تَتَّقُونَ * وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّه ، ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْه تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ ، فَتَمَتَّعُواْ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

والقرآن من أوله إلى آخره وجميع الكتب والرسل إنما بُعثُوا بأن يُعبد اللّه وحده لا شريك له ، وأن لا يجعلوا مع اللّه إلهاً آخر . والإله مَن يألهه القلب عبادة واستعانة وإجلالاً وإكراماً وخوفا ورجاءً كما هو حال المشركين فى آلهتهم ، وإن اعتقد المشرك أن ما يألهه مخلوق مصنوع كما كان المشركون يقولون فى تلبيتهم : لبيك لا شريك لك إلاّ شريكاً هو لك ، تملكه وما مَلَك ، وقال النبى ﷺ لحصين الخزاعى : « يا حصين ، كم تعبد » ؟ قال : أعبد سبعة آلهة ، ستة فى الأرض وواحد فى السماء . قال : « فمَن ذا الذى تعبده لرغبتك ورهبتك » ؟ قال : الذى فى السماء . قال : « يا حصين ، فأسلم حتى أُعَلِّمك كلمات ينفعك اللّه بهن » فلما أسلم قال : « قل اللّهم ألهمنى رشدى وقنى شر نفسى » .

* * *

فصل
فى حكم سماع الغناء للمتصوفة

وأما مَن زعم أن الملائكة والأنبياء تحضر سماع المُكاء والتصدية (٢) محبة له ورغبة فيه ، فهو كاذب مفتر ، بل إنما تحضره الشياطين وهى تنزل عليهم وتنفخ فيهم كما روى الطبرانى وغيره عن ابن عباس مرفوعاً إلى النبى ﷺ : « إنَّ الشيطان قال : يارب اجعل لى بيتاً . قال : بيتك الحمَّام ، قال : اجعل لى قرآناً ، قال : قرآنك الشعر ، قال : اجعل لى مؤذناً ، قال : مؤذنك المزمار » ،

---

(١) النحل : ٥١ - ٥٥

(٢) المكاء بالضم هو صفير الطائر ، والتصدية الصوت الذى يجرى مجرى الصدى وهو ما يرجع عن غيره بالإنعكاس ، وفسِّر بالتصفيق قال تعالى فى الجاهلية : ﴿ وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ (الأنفال : ٣٥) .

وقد قال تعالى فى كتابه مخاطباً للشيطان : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ [1] ، وقد فَسَّرَ ذلك طائفة من السَلَف بصوت الغناء وهو شامل له ولغيره من الأصوات المستفزة لأصحابها عن سبيل الله . ورُوِىَ عن النبى ﷺ أنه قال : « إنما نهيتُ عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت لهو ولعب ومزامير الشيطان ، وصوت لطم خدود وشق جيوب ودعاء بدعوى الجاهلية ذات المُكاء والتصدية » .

وكيف يَذَر الشيطان [2] عليهم حتى يتواجدوا الوَجد الشيطانى حتى إن بعضهم صار يرقص فوق رؤس الحاضرين . ورأى بعض المشايخ المكاشفين أن شيطانه قد حمله حتى رقص به ، فلما صرخ قال : هرب شيطانه وسقط ذلك الرجل .

● أصحاب الأحوال وحكم ضررهم :

وهذه الأمور لها أسرار وحقائق لا يشهدها إلاَّ أهل البصائر الإيمانية والمشاهد الإيقانية ، ولكن مَن انبع ما جاءت به الشريعة ، وأعرض عن السُبل المبتدعة ، فقد حصل له الهدى وخير الدنيا والآخرة ، وإن لم يعرف حقائق الأمور ، بمنزلة مَن سَلَكَ السبيل إلى مكة خلف الدليل الهادى فإنه يصل إلى مقصوده ويجد الزاد والماء فى مواطنه ، وإن لم يعرف كيف يحصل ذلك وسببه ، ومَن سَلَكَ خلف غير الدليل الهادى كان ضالاً عن الطريق ، فإما أن يهلك ، وإما أن يشقى مدة ثم يعود إلى الطريق ، والدليل الهادى هو الرسول الذى بعثه الله إلى الناس بشيراً نذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وهادياً إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ملك السموات والأرض .

وآثار الشيطان تظهر على أهل السماع الجاهلى مثل الإزباد والإرعاد والصرخات المنكرة ، ونحو ذلك ما يجدون فى نفوسهم من ثوران مراد الشيطان بحسب الصوت ، إما وجد فى الهوى مذموم ، وإما غضب وعدوان على مَن هو

---

(١) الإسراء : ٦٤ (٢) كذا فى الأصل .

مظلوم ، وإما لطم وشق ثياب وصياح كصياح المحزون المحروم ، إلى غير ذلك من الآثار الشيطانية التى تعترى أهل الاجتماع على شرب الخمر إذا سكروا بها ، فإن السُكر بالأصوات المطربة قد تصير من جنس الإسكار بالأشربة المطربة فتصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة ، وتمنع قلوبهم حلاوة القرآن وفهم معانيه واتباعه ، فيصيرون مضارعين للذين يشترون لهو الحديث ليُضلوا عن سبيل الله ، ويوقع بينهم العداوة والبغضاء حتى يقتل بعضهم بعضاً بأحواله الفاسدة الشيطانية كما يقتل العائن مَن أصابه بعينه ، ولهذا قال مَن قال من العلماء : إن هؤلاء يجب عليهم القود أو الدية إذا عُرِفَ أنهم قتلوا بالأحوال الشيطانية الفاسدة لأنهم ظالمون ، وهم إنما يغتبطون بما ينفذونه من موادهم المحرَّمة كما يغتبط الظلمة المُسَلَّطون .

ومن هذا الجنس حال خفراء الكافرين والمبتدعين والظالمين ، فإنهم قد يكون لهم زهد وعبادة وهمَّة كما يكون للمشركين وأهل الكتاب ، وكما كان للخوارج المارقين الذين قال فيهم النبى ﷺ : « يُحَقِّر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإنَّ فى قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة » .

وقد يكون لهم مع ذلك أحوال باطنة كما يكون لهم ملكة ظاهرة ، فإن سلطان الباطن معناه السلطان الظاهر ، ولا يكون من أولياء الله إلاَّ مَن كان من الذين آمنوا وكانوا يتقون . وما فعلوه من الإعانة على الظلم فهم يستحقون العقاب عليه بقدر الذنب ، وباب القُدرة والتمكن باطناً وظاهراً ليس مستلزماً لولاية الله تعالى ، بل قد يكون ولى الله متمكناً ذا سلطان ، وقد يكون مستضعَفاً إلى أن ينصره الله ، وقد يكون عدو الله مستضعَفاً وقد يكون سلطاناً إلى أن ينتقم الله منه ، فخفراء التتار فى الباطن من جنس التتار فى الظاهر ، هؤلاء فى العباد ،

بمنزلة هؤلاء فى الأجناد . وأما الغَلَبة فإن الله قد يديل الكافرين على المؤمنين تارة ، كما يديل المؤمنين على الكافرين ، كما كان يكون لأصحاب النبى ﷺ مع عدوهم ، لكن العاقبة للمتقين . فإن الله يقول : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ (١) ، وإذا كان فى المسلمين ضعف وكان العدو مستظهراً عليهم كان ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم ، إما لتفريطهم فى أداء الواجبات باطناً وظاهراً . وإما لعدوانهم بتعدى الحدود باطناً وظاهراً ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ منكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ﴾ (٢) . وقال تعالى : ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ، قُلْ هُوَ منْ عند أَنْفُسكُمْ ﴾ (٣) ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ ، إِن اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فى الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ (٤) .

* * *

فصل
فى المشاهد والقبور المشهورة

وأما هذه المشاهد المشهورة فمنها ما هو كذب قطعاً مثل المشهد الذى بظاهر دمشق المضاف إلى أُبَىّ بن كعب ، والمشهد الذى فى ظاهرها المضاف إلى أويس القرنى ، والمشهد الذى فى سفح لبنان المضاف إلى نوح عليه السلام ، والمشهد الذى بمصر المضاف إلى الحسين ... إلى غير ذلك من المشاهد التى يطول شرحها بالشام والعراق ومصر وسائر الأمصار ، حتى قال طائفة من العلماء منهم عبد العزيز الكنانى : كل هذه القبور المضافة إلى الأنبياء لا يصح فيها إلا قبر النبى ﷺ .

---

(١) غافر : ٥١ (٢) آل عمران : ١٥٥

(٣) آل عمران : ١٦٥ (٤) الحج : ٤٠ - ٤١

وقد أثبت غيره قبر الخليل عليه السلام أيضاً ، وأما مشهد علىّ فعامة العلماء على أنه ليس قبره ، بل قد قيل إنه قبر المغيرة بن شعبة ، وذلك أنه إنما ظهر بعد نحو ثلثمائة سنة من موت علىٍّ فى إمارة بنى بويه . وذكروا أن أصل ذلك حكاية بلغتهم عن الرشيد أنه أتى إلى ذلك المكان وجعل يعتذر إلى مَن فيه مما جرى بينه وبين ذُرِّية علىّ . ومثل هذه الحكاية لا يقوم شىء ، فالرشيد أيضاً لا علم له بذلك ، ولعل هذه الحكاية - إن صحت عنه - فقد قيل له ذلك كما قيل لغيره .

وجمهور أهل المعرفة يقولون إنَّ علياً إنما دُفِنَ فى قصر الإمارة أو قريباً منه ، وهذا هو السُّنَّة ، فإن حمل ميت من الكوفة إلى مكان بعيد ليس فيه فضيلة أمر غير مشروع ، فلا يُظن بآل علىّ رضى اللّه عنهم أنهم فعلوا به ذلك . ولا يُظن أيضاً أن ذلك خَفِىَ على أهل بيته والمسلمين ثلاثمائة سنة حتى أظهره قوم من الأعاجم الجهّال ذوى الأهواء ، وكذلك قبر معاوية الذى بظاهر دمشق ، قد قيل إنه ليس قبر معاوية وإن قبره بحائط مسجد دمشق الذى يقال إنه قبر هود .

وأصل ذلك : أن عامة هذه القبور والمشاهد مضطرب مختلف لا يكاد يوقف منه على علم إلاّ فى قليل منها بعد بحث شديد ، وهذا لأن معرفتها وبناء المساجد عليها ليس من شريعة الإسلام ، ولا ذلك من حكم الذكر الذى تكفَّل اللّه بحفظه حيث قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) ، بل قد نهى النبى ﷺ عما يفعله المبتدعون عندها مثل قوله الذى رواه مسلم فى صحيحه عن جندب بن عبد اللّه قال : سمعتُ النبى ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول : « إنَّ مَن كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، فإنى أنهاكم عن ذلك » ، وقال : « لعن اللّه اليهود والنصارى ؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

---

(١) الحجر : ٩

● ما يحرم عند القبور وما يُسن :

وقد اتفق أئمة الإسلام على أنه لا يُشرع بناء هذه المشاهد التى على القبور ، ولا يُشرع اتخاذها مساجد ، ولا تُشرع الصلاة عندها ، ولا يُشرع قصدها لأجل التعبد عندها بصلاة واعتكاف أو استغاثة وابتهال ونحو ذلك ، وكرِهوا الصلاة عندها ، ثم كثير منهم قال : الصلاة باطلة لأجل النهى عنها .

وإنما السُنَّة إذا زار قبر مسلم ميت - إما نبى أو رجل صالح أو غيرهما - أن يُسَلِّمْ عليه ويدعو له بمنزلة الصلاة على جنازته كما جمع اللّه بين هذين حيث يقول فى المنافقين : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ (١) ، فكان دليل الخطاب أنَّ المؤمنين يُصلَّى عليهم ويُقام على قبورهم ، وفى السُنَن أن النبى ﷺ كان إذا دفن الميت من أصحابه يقوم على قبره ثم يقول : « سلوا له التثبيت ، فإنه الآن يُسْئَل » .

وفى الصحيح أنَّه كان يُعَلِّم أصحابه أن يقولوا إذا زاروا القبور : « السلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين ، وإنَّا إن شاء اللّه بكم لاحقون ، ويرحم اللّه المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل اللّه لنا ولكم العافية ، اللّهم لا تحرمنا أجرهم ، ولا تَفْتِنَّا بعدهم ، واغفر لنا ولهم » .

● تعظيم المساجد وما ورد فيها :

وإنما دين اللّه تعالى تعظيم بيوت اللّه وحده لا شريك له ، وهى المساجد التى تُشرع فيها الصلوات جماعة وغير جماعة والاعتكاف وسائر العبادات البدنية والقلبية من القراءة والذكر والدعاء للّه ، قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ ، وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (٣) ،

---

(١) التوبة : ٨٤ (٢) الجن : ١٨ (٣) الأعراف : ٢٩

وقال تعالى : ﴿ يَا بَنِى آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّنْ فَضْلِهِ ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣) . فهذا دين المسلمين الذين يعبدون الله مخلصين له الدين .

وأما اتخاذ القبور أوثاناً فهو من دين المشركين ، الذى نهى عنه سيد المرسلين ، والله تعالى يُصلح حال جميع المسلمين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً طيباً مباركاً كما هو أهله .

« تمت الرسالة - وقد طبعت عن نسخة كُتِبَتْ فى بغداد بقلم محمد صالح المصطفى الوتار ، فيها شىء من الغلط والتحريف ، عفا الله عنا وعنه » .

* * *

(١) الأعراف : ٣١ (٢) التوبة : ١٨ (٣) النور : ٣٦ - ٣٨